
UTL AT DOWNSVIEW
D RANGE BAY SHLF POS ITEM C
39 13 07 13 12 010 3

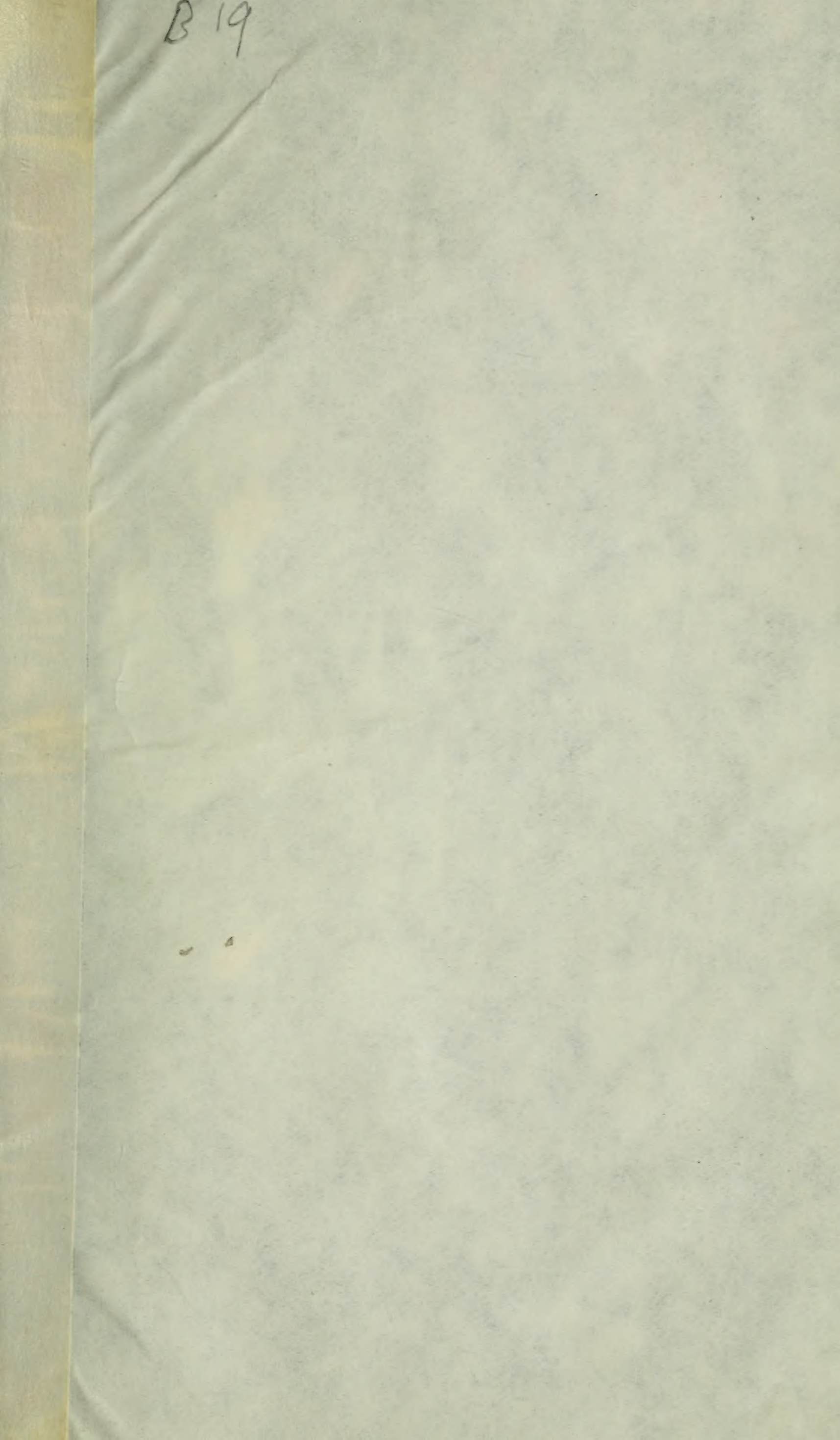
VP
24.III 83

PLEASE DO NOT REMOVE
CARDS OR SLIPS FROM THIS POCKET

UNIVERSITY OF TORONTO LIBRARY

Digitized by the Internet Archive
in 2011 with funding from
University of Toronto

http://www.archive.org/details/alnubdhahalthnya00dira


B 19



al-Nabdhah

النبذة الثانية

﴿ من آثار الدائرة العلمية المارونية ﴾

طبعت في المطبعة العمومية الكاثوليكية في بيروت

سنة ١٨٨٦

B
28
A7N8
1886

مقالة

في حكمة الخالق في الانسان

خصوصاً من جهة وظيفة الهضم فيهِ

لجناب الدكتور البارع سليم افندي جلخ احد اعضاء الدائرة

بسم الله المبدع الحكيم

ان الله سبحانهُ وتعالى خلق الانسان ذا نفسٍ وجسم مركب من اعضاء كثيرة تختلف عن بعضها بعض هيئةً ووظيفةً وميزه عن الحيوان بالنطق والادراك وكمال تركيب اعضائهِ كمالاً يطابق احتياجات النفس التي سلطها على اعمالهِ سلطةً يسمو بها على سائر المخلوقات الهيولية حتى صار الانسان ختام عجائب المخلوقات او اعجوبة جمعت فيها غرائب الخليقة كلها . فسبحانهُ تعالى من مكوّنٍ عظيم وعامل حكيم ظهرت قدرتهُ بكل خليقة اوجدها من العدم ووضحت عظمتهُ على الاخص بتكوين الانسان مولفاً من اعضاء منظمة تنظيماً موافقاً لاحتياجات نفسهِ العديدة

ولا يغرب عنكم سادتي ان الموجودات على هذه الارض نقسم الى ثلاث ممالك : المملكة الجمادية . والمملكة النباتية . والمملكة الحيوانية . فالجمادية لا تنمو ولا تحس . والنباتية هي ناميات غير حاسة . والحيوانية تنمو وتحس . ولما كان الانسان اسمى جميع الحيوانات كان ينمو ويحس ويدرك ما لا تدركهُ سائر الحيوانات وادراكهُ هذا من اعمال النفس التي خُصّت بهِ واذ كانت هذه النفس من اصل شريف اي مخلوقة على صورة الله ومثاله كما يعلمنا الكتاب العزيز لزم لاظهار قواها ان يكون الانسان مرفوع الراس مثلاً دلالة على ان نفسه تتوق الى اصله في العلى بينما الحيوان يشاهد منحنياً نحو الارض امهِ

كأنهُ ما وجد على الارض الاَّ لياكل . وجد لهُ دماغ كامل التركيب كبير الحجم موافق لاظهار القوى النفسية بهِ . وجدت لهُ اعضاء تحرك حركات مختلفة وتعمل اعمالاً غريبة تتميماً لمقاصد النفس وتسهيلاً لاحوال الترقي الذي يصعد الانسان على الدوام بسلّمهِ حتى يبلغ اخيرًا مبلغًا من النجاح يتعسر علينا الان فهمهُ كما يتعسر على سلفائنا لو عادوا الينا تصديق ما بلغنا اليه في زماننا الحاضر من الاكتشافات الغريبة المفيدة والاعمال الفائقة ادراك البسطاء

واعضاء الانسان وجدت لغاياتٍ ثلاث : الاولى حفظ ذاته . والثانية بقاء نوعهِ . والثالثة ليعيش في الهيئة الاجتماعية كفردٍ منها . فانقسمت لذلك اعضاؤه الى ثلاثة اجهزة الاول جهاز الحيوة الآلية . وهذا الجهاز يشترك بينه وبين الحيوان والنبات وهو مؤلف من اعضاء تشتغل مستقلةً عن الكون الخارجي على نوع ما اي انها متى دخلها من الخارج ما تحتاج اليهِ تممت وظائفها غير متعلقة بهِ . والثاني جهاز بقاء النوع او ديمومته على الارض لانهُ اذ كان من ضروريات هذه الحيوة ان كل مركبٍ ينحلّ وكل عايش يموت كان من الضرورة ايجاد جهاز لتوليد افرادٍ عوض الذين يفقدون دفعًا لاندثار النوع . والثالث جهاز الحياة المشتركة او جهاز النسبة المركب من اعضاء بها يعيش الانسان مشتركًا مع العالم الخارجي عنه . وهو مؤلف من الحواس الخمس : السمع والبصر والشم والذوق واللمس . ومن اعضاء الحركة اي العضلات والعظام وما يتبعها لاجراء عملها حسب اللزوم . فان اعضاء هذا الجهاز اذا كانت مفقودة تمكن العيشة مع ذلك فيصبح الحيوان كالنبات عايشًا مستقلاً عن المعاطاة مع العالم الخارجي . مثلاً اذا فقد القدمان لا يعدم المرء الحياة وان عدم امكانية الانتقال من محل الى آخر . ولو عدم البصر لعاش كفيفًا وان لم يبصر ما حولهُ . وكذا ان كان اخرس او اطرش او معدوم اليدين . فانجلى لكم الان لماذا تسمت هذه الاعضاء باعضاء الحياة المشتركة او اعضاء النسبة

اما اعضاء جهاز الحياة الآلية فهي اعضاء الهضم والامتصاص والدورة والتنفس الخ . وهي بالاجمال اعضاء التغذية والافراز التي تخدم الانسان ليعيش كفردٍ

ولما كانت الحياة هلاكًا مستمرًا وتركيبًا دائمًا كان من الضروري وجود اعضاء للتغذية والافراز كما ذكرت لكم . فان كل عضو من اعضاء الجسد وكل آلةٍ من الاتهِ مؤلفة من دقائق صغيرة اذا تالفت مع بعضها كونت ذاك العضو بهيئتهِ وهذا اذا عمل

عملها استهلك الدقايق المركب منها وهذه الدقائق الهالكة لا بد من ابرازها من الجسد لئلا تضر به لذلك وجدت اعضاء الافراز. ثم لو دام هذا التحليل في دقايق الاعضاء لهلك الجسم اخيراً بفناء اعضائهِ لذلك اوجدت العناية المبدعة اعضاء للتعويض عن تلك الدقائق الهالكة باعداد مواد يمكن تحويلها الى نفس جوهر المواد الهالكة وهي اعضاء التركيب الداخل في تاليفها من الجملة الجهاز الهضمي

ايها السادة لو شئت ان اعدد على مسامعكم عجائب الله في كل المركب الانساني او في كل من الاجهزة والاعضاء والحواس الجسدية وقوى النفس الروحية للزم كتاب بل كتب لا خطاب. لكننا لو تاملنا اقل جهاز او ادنى حاسة او اصغر عضو لحملنا على الانذهال والتعجب من العناية الصمدانية والحكمة العلوية التي تبدو لنا في تركيب تلك الاعضاء او الحواس وفي وظائفها وائتلافها والمحافظة على كيانها واُجبرنا على الاقرار بحكمة الخالق غير المتناهية وعلى المباركة والسجود لاسمه فكذا نتوصل الى هذا الانذهال والتعجب اذا تبصرنا في تركيب العين مثلاً لوجدنا فيه مطابقة عجيبة للوظيفة المنتدبة العين اليها. ففي ظاهرها الى الاعلى نرى بروزاً في العظم يمنع سقوط الاجسام الغريبة من فوق الى العين كانها موضوعة ضمن سور ثم نشاهد على هذا البروز شعراً في الغالب اسود يفيد في تكسير النور الداخل الى العين التي نراها مستورة بجفنين مزدانين باهداب من شعر اسود اللون اكثر الاحيان ينطبقان وينفتحان على التعاقب مدة اليقظة لمنع دخول الاجسام الغريبة لهذا العضو اللطيف وفي الرقاد ينطبقان للمحافظة على العين عند ما يكون العقل والفكر ساكنين بلا عمل. نرى سطح هذه العين يترطب من وقتٍ الى وقت بماء ملح قليلاً هي الدموع التي تنسكب بقنياتٍ صغيرة اليهِ لمنع تاثير الاحتقان الذي يحصل في اوعيتهِ الدموية وقت الغم والكدر

ولهذه العين طبقاتٌ ثلاث الاولى الى الظاهر تسمى صلبة تندغم بها عضلات صغيرة تحرك المقلة الى كل الجهات بسهولة لتحكيم البصر على المرئيات وفي وسط هذه الطبقة الصلبة الى الظاهر قطعة شفافة يخترقها النور بسهولةٍ وهذه القطعة تسمى القرنية المؤلفة وحدها مع عظم شفافتها من نيف وستين طبقة رقيقة. ثم بعد هذه الصلبة طبقة ثانية تسمى المشيمية وهي سوداء اللون تمتص اشعة النور الداخل من القرنية الشفافة فتمنع انعكاسها على الشبكية والتشويش الذي يحصل من ذلك لوضوح الصور المرسومة هناك. وفي وسط

هذه الطبقة الى المقدم وراء القرنية قطعة مستديرة مثقوبة في مركزها ثقبًا مستديرًا ايضًا هي القزحية تسمت بذلك لمشابهتها بقوس قزح لكثرة واختلاف الوانها . وثقبها المركزي هو الحدقة والحكمة في هذه القزحية ان لها اليافًا تنقبض وتنبسط حسب اللزوم لتضييق او توسيع الحدقة فاذا كان النور شديدًا ضيقت هذه الالياف الحدقة حتى يدخل النور خفيفًا ولا يشوش البصر وبالعكس اذا كان النور خفيفًا اتسعت الحدقة ليدخل من اشعة النور ما يكفي لارتسام الاشباح ورؤيتها . والطبقة الثالثة هي الشبكية لاشتباك اليافها كالشبكة المعهودة وهذه الطبقة مؤلفة من امتداد الياف العصب البصري الذي يخترق مؤخر العين وعلى هذه الطبقة الثالثة ترتسم الاشباح فتتاثر بها ويشعر بهذا التاثر العصب البصري فينقلهُ الى الدماغ . ولما كان النور يتشعع من جسم منير الى جميع الجهات كانت النقطة المنيرة تضيء كل سطح الشبكية لا نقطة واحدة منها فقط ما لم يكن هناك اوساط تعارض مروره . ولذلك كان لا بد من ان الشبكية تحتاج الى جهاز بصري موضوع الى مقدمها يفصل نور الاجسام المختلفة بعضها عن بعض والاَّ لما ابصرت شيئًا واضحًا غير التمييز بين نور النهار وظلام الليل . لذلك وضعت الحكمة الالهية اوساطًا شفافة كاسرة امام الشبكية لكي تجمع في نقطةٍ واحدة الاشعة الكثيرة المنفرجة من كل نقطةٍ في الجسم الظاهر وتوجهها بحيث تقع على نقطةٍ تقابل النقط المذكورة في الشبكية فتحدث صورة تامة للجسم الذي صدرت منهُ . وهذه الاوساط الكاسرة هي من المقدم الى الخلف : القرنية التي ذكرناها ورطوبات ثلاث الاولى مائية والثانية بلورية وهي شبه عدسة او بلورة والثالثة زجاجية وهي جسم شبيه بالزجاج منظرًا ولولا ضيق المقام لفصلت ذلك لكم ولكن نكتفي بما ذكر عن العين لنستدل منهُ على حكمة الخالق العظيمة وننظر باكثر اختصار الى حكمتهِ في بقية الحواس .

فللسمع ايضًا آلة مخصوصة منتظمة التركيب تدرك بها الاصوات الصادرة من الجسم المصوت والمنقولة بتموجات الهواء الى تلك الاذن الموضوعة وضعًا محكمًا في الراس لقبول ما يرد اليها من هذه التموجات فتضبطها بصيوانها الظاهر الكثير التعاريج المتجه الى المقدم فتنحصر التموجات في هذه التعاريج وتتوجه الى فتحة الصماخ الذي هو عبارة عن قناة نصفها الاول غشائي والنصف الاخر عظمي فتصبب هناك غشاء رقيقًا فاصلاً بين الصماخ الظاهر والصماخ المتوسط او الاذن المتوسطة فيرتج هذا الغشاء ويحرك بارتجاجهِ عظيمات صغيرة

متعلقة ببعضها ولما كان للاجسام الصلبة صلاحية لنقل الصوت نقلت هذه العظيمات تلك الارتجاجات الى تجويف في العظم تنتشر فيهِ الياف العصب السمعي التي تنقل التاثير الى الدماغ الذي يدرك نوعية الصوت وحالتهِ ومعناه ·

وكذا الشم فان الانف مبطن بغشاء مخاطي يفرز سائلاً يحل دقائق الجسم ذي الرائحة فتتاثر بها فروع العصب الشمي المنتشر في جدران الانف وينقل هذا التاثر بالعصب الى الدماغ الذي يدرك رائحة المشموم · ومثله حاسة الذوق الموجودة داخل الفم عند مدخل القناة المضمية وهناك اللعاب يحل المواد المتناولة فتشعر الاعصاب بطعمها · وحاسة اللمس من هذا القبيل ايضًا واكثرها او معظم قوتها توجد في رؤوس الانامل حيث ينتهي كل عصب بكتلةٍ تشعر بالجسم الملموس ان كان صقيلاً او خشنًا او رطبًا او جافًا

هذا من جهة الحواس وماذا نحكم من جهة حكمة المولى في المفاصل المؤلف كل واحدٍ منها من طرفيْ عظمين يتزلقان على بعضهما وحتى لا تبرى اطراف هذه العظام المفصلية من تكرار تحريكها كستها الحكمة الالهية بمادة غضروفية وندَّتها بمادة زلالية لسهولة انزلاقها على بعضها كما تندَّى الآلات بالزيت

او ماذا تقولون بزوائد صغيرة هدبية وضعتها العناية المبدعة في داخل القصبة الرئوية زوائد ذات حركات مستمرة ترفرف الى الاعلى لتمنع سقوط الدقايق الصغيرة التي تدخل مع الهواء في التنفس دفعًا لاذاها في الرئتين ولدفع المخاط الذي ينفرز من الغشاء المخاطي الى الاعلى · ومن هذا القبيل ايضًا وجود الشعر عند مدخل الانف لالتقاط الغبار عند استنشاق الهواء وجوده عند مدخل الاذن لمنع دخول الهوام اليها مع وجود مفرز مادة صمغية مرَّة في المحل نفسه وللغاية عينها بحيث اذا شعر الهوام بمرورة هذه المادة رجع الى الوراء فيالها من حكمةٍ عجيبة لانه يتعسر على الانسان اخراج الهوام اذا دخل اذنه لولا وجود هذه المادة لمنع دخولها ولا احد منكم الاَّ ويدرك شدة الالم الحاصل من دخول ذبابة صغيرة الى الاذن على حين غفلة وبالصدفة

واذا تاملنا بحالة العظام التي وجدت دعامةً لجسم الانسان نندهش عند ما نرى ان الطويلة منها مجوفة وممتلئة من مادة نخاعية لتبقى خفيفةً لا يعسر حملها كما لو كانت ممتلئة من المادة العظمية نفسها التي تزيدها ثقلاً فيتعسر تحريكها · وكيف لا نرى حكمةً في هذا الخالق العظيم حتى في اصغر الاشياء من تركيب جسد الانسان من مثل هيئة القدم

الذي يكون متقوساً شبه قنطرة ليتمكن من حمل ثقل الجسد عليه اذ لا يخفى ان القناطر تكون ذات قوةٍ اعظم لحمل الاثقال عليها من البنايات المستطيلة المسطحة

ولما كان لا يمكن استيفاء الشرح في كل من الاجهزة كما مرّ اجتزيت بان اطرق مسامعكم بقليل من الكلام المخصوص في الجهاز المضمي

ان آلة الهضم هي قناة طويلة ممتدة من الفم الى الاست . وهي عضلية غشائية البناء طولها نحو ثلاثين قدماً مبطنة بغشاء يسمى الغشاء المخاطي هو انعكاس الجلد من الظاهر الى الداخل . ولها اقسام نذكرها من الاعلى الى الاسفل : الفم البلعوم . المريء . المعدة الامعاء ولهذه القناة اعضاء اضافية لتكملة الهضم هي من الاعلى الى الاسفل ايضاً . الاسنان . الغدد اللعابية . الكبد . البنكرياس . الطحال . وغدد اخر صغيرة منتشرة على مسير القناة المضمية في جوهر غشائها المخاطي .

اما الفم فهو بداية القناة المضمية يحتوي على اللسان والاسنان واليه تنفتح قنيات الغدد اللعابية المنتشرة في ارضه وعلى جانبيه

والبلعوم كيس عضلي غشائي وضعه خلف الانف والفم والحنجرة طوله نحو اربعة قراريط ونصف . قطره المستعرض اكبر من قطره الامامي الخلفي . تاليفه من ثلاث طبقات : مخاطية ظاهرة للعين وعضلية مؤلفة من الياف او حزم تسمى العضلات البلعومية . ويفصلها عن بعضها وعن المخاطية صفاق هو الطبقة الثالثة وتسمى الليفية

والمريء قناة غشائية عضلية ايضاً ممتدة من نهاية البلعوم الى بداية المعدة طولها نحو تسعة قراريط مؤلفة من ثلاث طبقات مخاطية في الباطن وخلوية في الوسط توصل بين المخاطية وبين الثالثة العضلية التي هي الى الخارج . وهذه الطبقة العضلية مؤلفة من حزم او الياف طولية وحلقية تحيط بالمريء الاسطواني الشكل . والغشاء المخاطي للمريء والبلعوم والفم يحتوي على غدد مخاطية صغيرة تفرز مخاطاً يندي سطح الغشاء على الدوام ويزداد هذا المفرز عند تهيج هذه الاقسام بوجود الطعام او منبهات اخر .

والمعدة وهي العضو الرئيسي للهضم هي اكثر اتساعاً من سائر الاجزاء المؤلفة للقناة المضمية . تبتدىء عند نهاية المريء . وضعها مستعرض في الخط المتوسط تقريباً بين التجويف الصدري والتجويف البطني . شكلها مخروطي ويختلف حجمها باختلاف حالاتها من فروغ وامتلاء وحالة كل شخص . واذا كانت ممتلئةً باعتدال كان طولها من الجانب

الى الجانب نحو اثني عشر قيراطاً ومن الاعلى الى الاسفل نحو اربعة قراريط. لها طرفان وفتحتان وحافتان ووجهان. فالطرف الايسر هو اكبر اقسامها وفيهِ الفتحة المستطرق المريء اليها وتسمى الفتحة الفؤادية او القلبية لمجاورتها للقلب. والطرف الايمن وهو الادق توجد فيه الفتحة البوابية المستطرقة الى الامعاء. والحافتان عليا تكوّن قوساً صغيراً تقعيرهُ الى الاعلى وسفلى تكوّن قوساً كبيراً تحديبه الى الاسفل. اما الوجهان فمقدم وخلفي

والمعدة مؤلفة من اربع طبقات: داخلية مخاطية. وبعدها خلوية موصلة بين هذه وبين الطبقة الثالثة العضلية. والرابعة ظاهرة وهي مصلية ناشئة من غشاء يسمى البريتون. اما المخاطية فممتلئة غدداً منتشرة فيها تنفتح الى المعدة حيث تفرز عصارات خصوصية لعمل الهضم. والخلوية تتوزع فيها اوعية المعدة قبل اختراقها الغشاء المخاطي لذلك تسمت ايضاً بالوعائية. اما العضلية فمؤلفة من الياف تختلف اتجاهاً فمنها ما يكون طولياً ومنها ما يكون حلقياً او بالحري على هيئة «الثمانية الافرنجية» (8) ومنها ما يكون منحرفاً وهذه الالياف تختلف هكذا اتجاهاً لتحصل منها حركات المعدة المختلفة كما سيجيء

والامعاء تقسم اولاً الى قسمين عظيمين: الدقاق والغلاظ. والدقاق تقسم الى ثلاثة اقسام. الاول الاثنا عشري سمّي بذلك لان طولهُ اثنا عشر اصبعاً تساوي من ٨ الى ١٠ قراريط وهو يبتدي عند فتحة البواب للمعدة ينتفخ في بداءته ثم يضيق تدريجاً حتى ينتهي بالقسم الثاني المسمى الصائم لوجوده فارغاً بعد الموت. وطول هذا القسم نحو خمسي ما بقي من المعى الدقيق وينتهي بالقسم الثالث المسمى لفائفي لكثرة تلافيفه. طوله نحو ثلاثة اخماس ما بقي من المعى وينتهي ببداءة الامعاء الغلاظ التي تقسم الى قولون له ثلاثة اقسام: صاعد ومستعرض ونازل ثم الى تعريج سيني لمشابهته بالسين الافرنجية (S) والى مستقيم لاستقامة هذا الجزء في سيره. وهذا ينتهي بفتحة الاست.

والقولون يبتدىء عند نهاية المعى الدقيق بفتحة عليها صمام يمنع عود المواد التي تدخله الى الوراء وهو معقد الشكل لسببٍ في اصل بنائه العضلي اذكرهُ لكم

بناء الامعاء كبناء المعدة من اربع طبقات ايضاً. داخلة مخاطية ثم خلوية ثم عضلية ثمّ غشائية مصلية. فالمخاطية تحتوي على غددٍ كثيرة تسمت باسماء مكتشفيها وعلى بداية اوعيةٍ ماصة واوعيةٍ دموية لامتصاص الغذاء من الكتلة المهضومة من الطعام. وهذه الغدد والاوعية تكثر في بداية الامعاء الدقاق ثم تاخذ تقلُّ تدريجاً حتى

نهاية الغليظة منها . والطبقة الخلوية هي وعائية كالتي للمعدة . اما العضلية فمكونة من الياف طولية والياف حلقية والالياف الطولية في المعى الغليظ قصيرة بالنسبة الى طوله لذلك اذا انقبضت سببت ذاك الشكل المعقد الذي نراهُ في القولون . والطبقة العضلية هذه تأخذ بالسماكة عند نهايتها حتى اذا ما انتهت الى آخر المستقيم صارت حزمةً حلقية تسمى العاصرة الباطنة . وعلى وجه الطبقة المخاطية للمعى الدقيق تشاهد ثنيات حوافيها السائبة متجهة الى داخل الامعاء تسمى الصمامات الكاذبة سياتي ذكر افادتها

هذا باختصار كلي تشريح القناة الهضمية ولنأتِ لشرح وظيفتها نقدم لكم سادتي فيما مرّ ان كل عضو من اعضاء الجسد مؤلف من دقائق صغيرة يهلك منها قسم عند كل عمل تعمله الاعضاء وازيدكم الان ان كل هذه الدقائق لها مدة معلومة من الحياة عند انقضائها تموت وان لم يطرا عليها سبب ميكانيكي . فاستوجب ذلك عمل حيويّ خصوصي هو تمثيل دقائق اخر جديدة غيرها وهذا يتم بواسطة التغذية . وقد وضع الباري سبحانهُ وتعالى لكل دقيقة اصلية قوة تجذب بها اليها موادّ من الدم تتمثل لبنائها وتشاركها في صفاتها الحيوية

وكلما احتاج الشخص الى غذاء شعر في داخلهِ بحاسة خصوصية هي الجوع الذي هو حالة تنبيه عصبي ينسبه العقل الى المعدة والحال انهُ لا يتوقف على حالة فروغها من الطعام فان المعدة تشعر بهذا الفروغ بواسطة اعصابٍ خصوصية تاتيها فروعًا من العصب الرئوي المعدي فاذا قطع هذا العصب يبقى الشخص مع ذلك مشعرًا بالجوع فلو كانت هذه الحاسة متوقفة على حالة المعدة لقطع هذا الشعور بقطع العصب . ومن وجهٍ اخر نرى ان المعدة اذا دخلتها مواد صلبة غير قابلة للهضم تنشغل على نوع ما بها فيسكن الجوع برهةً كما انهُ اذا اكل الانسان كميةً من الطعام يشعر بالشبع حالاً مع ان جسمه لم يكن بعد تغذى من المواد التي تناولها فلذلك يقال ان الجوع ينشا عن عموم الطبيعة ولاسيما من المعدة التي يؤثر في اعصابها احتياجُ الدم الى التجديد اكثر من تاثيره ببقية اعصاب الجسد

وكذلك العطش فانهُ احساس موضعي ناتج من نقص الماء في الجسد يشعر بهِ في مؤخر الحلق واعلى البلعوم ولا يكون هذا الاحساس هناك سوى التنبيه لاحتياج الجسم كله للماء بحيث اذا ترطبت هذه الاجزاء التي هي مركز الشعور بالعطش لا يبطل

الاحساس به الا زمنًا قصيرًا بينما يزول بالكلية اذا ادخلت سوائل للدم حقنًا بالاوعية او بالمستقيم او باغماس الجسد في الماء . فاذًا يقال ان اعصاب الحلق والبلعوم تتأثر من احتياج الماء اكثر من بقية اعصاب الجسد ولم يكن ذلك الاّ حكمة من الباري سبحانه اذ وضع فينا منبهاتٍ خصوصية ذات مراكز معلومة لكل حاجةٍ من حاجات طبيعتنا

واذ تمهد ذلك نقول: ان الانسان اذا شعر بالجوع حضّر الطعام بيده وتناوله بها الى فمه مجزءًا اجزاء صغيرة باسنانه التي تعدّ الطعام الى سهولة مروره وهضمه في القناة المضمية وقبل الدخول بتفصيل كيفية هذا العمل اقول لكم ان انواع طعام الانسان تكون كما هو معلوم عندكم مؤلفة من رتب الممالك الثلاث اي من مواد حيوانية ومواد نباتية وقسم من مواد جمادية . ومما ينبغي ملاحظته هنا ان القناة المضمية في الحيوانات الآكلة اللحوم فقط هي قصيرة وفي المقتصرة على اكل النبات هي طويلة اما في الانسان الذي يغتذي من النوعين فهي متوسطة بينهما . وتفسير ذلك ان الحيوان اذا كان من اكلة اللحوم تمكنت قناته المضمية بسهولة من تمثيل نوع طعامه الحيواني الى ذات الجواهر المفقودة من جسمه ولا يلتزم ايضًا ان يتناول من نوع هذه الاطعمة كمية وافرة ليحصل على ضروريات بينما الحيوان من آكلة النبات يلتزم لمناولة كمية وافرة من الحشائش او الحبوب ليستخلص منها ما يلزم لتغذية جسده وهذا الاستخلاص او التمثيل يستلزم وقتًا اطول تمكث فيه هذه المواد في قناته الماضمة ثم ان المواد التي يغتذي منها الانسان هي ذات فائدتين . الاولى لتكوين الانسجة والثانية لتوليد الحرارة الحيوانية فيه . فالاولى تسمى «نيتروجينية» لان معظم تركيبها من العنصر المسمى «نيتروجين» وهي الزلال «البومين» والمادة الجبنية «كاسين» والهلام «جلاتين» الخ من المواد الداخلة في تركيب انسجة الحيوانات . وهذه المواد تتحول بسهولةٍ الى «البومين» الدم اعني تتحول الى الاصول المغذية او المكونة بالذات . والثانية تسمى «هيدروكربونية» لانها مركبة من «هيدروجين وكربون» ومثالها الدهن والزيت والنشاء والسكر الخ وهي تستخدم في توليد الحرارة لذلك تسمى ايضًا «صانعة الحرارة»

ومن الضروري ان يتناول كل حيوان من نوعيّ هذه الاطعمة لان المقتصر على نوع واحد منها يهلك لا محالة بعد مدة طالت او قصرت

والانسان يمكنه ان يعيش مقتصرًا على الطعام الحيواني او على الطعام النباتي ولكن

يشترط في ذلك ان يكون احد هذين النوعين مركبًا من الاصول النيتروجينية والهيدروكربونية معًا . فاللحوم مثلاً تحتوي على كلما يلزم للجسم من تكوين انسجة وتوليد حرارة لاحتوائها على الجواهر المطلوبة . والخبز يحتوي على النوعين ايضًا كما يفيدنا تركيبه الكيماوي . واقدم لكم مثلاً في ذلك تغذية الاطفال من لبن المرضعات لا غير: فان اللبن لما كان مركبًا من كازين من المواد النيتروجينية ومن سكر ومواد دهنية من غير النيتروجينية كان اللبن وحده كافيًا لتغذية الطفل حتى تبرز اسنانه فيتمكن من تناول اطعمة اخر . كذلك البيضة التي تغذي اجنة الطيور قبل خروجها منها فانها مؤلفة من زلال وهو مادة نيتروجينية و زيت اصفر ومخاط واملاح وهذه غير نيتروجينية . فسبحان الذي صنع كل شيء بحكمة

ومع امكانية انتصار الانسان على تناول نوع واحد من النوعين المذكورين اي على الحيواني وحده او على النباتي فقط يستدل مع ذلك من حالة اسنانه وتركيب قناته الهضمية انه يضطر الى الاغتذاء من النوعين

ولنعود الآن لبحثنا الاول . ان الانسان يتناول طعامه لقمةً فلقمة ويضع كل لقمة في فمه ويسحقها باسنانه ويمضغها و يرطبها بلعابه الذي يفرز بوفرة لتنبه اعصاب غدده من وجود الطعام في الفم . و يضبط اجزاءها عن الخروج بشفتيه وهكذا تدوم اللقمة في الفم مشتغلاً بها حتى اذا ما صارت صالحة للازدراد دفعها اللسان الى ورائه فيرتفع البلعوم قليلاً لاقتبالها و ينضغط عليها و يعصرها بقوة طبقته العضلية دافعًا اياها للاسفل

قلت ان اللعاب يرطب اللقمة ولكن عدا ذلك فللعاب فوائد أخرى منها انه يحل اجزاء الطعام الصلبة لتشعر بطعمها اعصاب الذوق . ومنها عمل كيماوي هو ان اللعاب لقلويته يوثر في الماكيل النشائية و يبتدىء في احالتها الى كلوكوز او سكر العنب فانه يوثر ايضًا بالنشاء كتاثير الماء الغالي فيه بانه يفجر حبوبه ويجعلها صالحةً للذوبان ثم ان لدخوله مع لقمة الطعام المترطبة به الى المعدة يوقف فيها تاثير الفعل الحامض لعصارتها عن اعاقة استحالة النشاء الى سكر . فاذًا اللعاب فعل مهم في عمل الهضم ولا عجب ان راينا المعتادين على مضغ التبغ والبصاق يصابون بعسر الهضم على الغالب

قلنا ان اللقمة اذا بلغت البلعوم عصرها وضغطها الى الاسفل اي الى المريء الذي ينقبض عليها بالياف العضلية من الاعلى الى الاسفل حتى اذا ما بلغت فتحة المعدة القلبية

سقطت في تجويف المعدة التي يكون غشاؤها المخاطي متجعداً لفروغها من الطعام فينبسط الغشاء للقمة وتزول تجعداته وعند بلوغها التجويف تنطبق عليها الفتحة القلبية ثم تعود تنفتح لقبول لقمة خلافها وهكذا على التعاقب حتى تاخذ المعدة ما يكفيها من الطعام فيشعر الانسان بهذا الكفاء وينكف عن تناوله ما لم يكن شرهاً نهماً فيلقي على معدته اثقالاً لا تحملها وتنفر هي فيه بتمنعها عن هضمها فيشعر صاحبها بانزعاج الامها وعللها الكثيرة

قلبي الى ما ضرني داعي   يكثر اسقامي واوجاعي

كيف احتراسي من عدوي اذا   كان عدوي بين اضلاعي

وقبل بلوغ الطعام الى المعدة تكون ساكنة غير مشتغلة وسطح غشائها رمادي مندّى بمخاط لا حامض ولا قلوي او قلوي قليلاً فاذا دخلها الطعام احمرّ هذا الغشاء لتوارد الدم اليه وتاخذ غدد المعدة بافراز عصاراتها الخاصة بنشاط اذ يظهر على سائر سطح الغشاء نقط تسيح عليها كظهور نقط العرق وسيلانه على الجبهة من الحر وهذا العصار يكون حامض الطعم قليلاً . وشغل الغدد هذا ناتج من تنبه الاعصاب التي تشعر بوجود الطعام في المعدة فتفعل موثرة في الغدد لتفرز عصاراتها كما تنبه اعصاب الفم من دخول اللقمة اليه فتنبه الغدد اللعابية للافراز

وقد عُرفت كيفية افراز العصارات المعدية من مراقبة ذلك عياناً في رجلٍ كان قد اصيب بجرح في جدران البطن امام المعدة فبقيت في الجرح فتحة ناسورية مستطرقة لهذا العضو بقرب الطرف العلوي للقوس الكبير على بعد ثلاثة قراريط من الفتحة القلبية وكانت جميع الانسجة من الباطن الى الظاهر ملتحمة ببعضها الاّ ثنية من الغشاء المخاطي مدلاّة على وجه الفتحة بهيئة صمام يسدها وقت اشتغال المعدة ويمنع خروج متضمناتها الى الخارج الاّ اذا دُفع الصمام بالاصبع الى الوراء . وهذا الرجل كان تحت معالجة طبيب يدعى بومونت الذي اتخذ هذه الفتحة الناسورية وسيلةً لاجراء امتحاناتٍ فيزيولوجية عديدة فيها خدم العلم خدماتٍ كثيرة مفيدة . من ذلك انه كان تارة يهيج المعدة بادخال جسمٍ صلب اليها فتاخذ بافراز عصاراتها ثم كان يستخرج هذه العصارات بواسطة انبوبة من صمغ مرن ويمتحن تركيبها الكيماوي . وتارةً كان يضع هذه العصارات في وعاء مع قطعة لحم ويجعل الوعاء على حرارة المعدة الاعتيادية الطبيعية في باطنها ويلاحظ كيفية هضم قطعة اللحم في السائل المعدي المستخرج . وحيناً كان يغذي الرجل بمواد مختلفة

في مثل سمك ولحم وبيض وغير ذلك وينظر اليها بعد مدات مختلفة من وقت دخولها ويراقب المدة اللازمة لهضم كل مادةٍ منها . وطوراً كان يراقب حركات المعدة عند دخول الطعام اليها ومدة مكثه فيها حتى بلغ هذا العلم من امتحاناته الكثيرة درجة لا يمكن بلوغها لولا ظرف هذا الرجل الا بصعوبةٍ لا يجهل مقدارها

فعلم ان الطعام اذا دخل المعدة احتقنت اوعيتها دماً واحمرّ غشاؤها المخاطي وتنبهت غددها لافراز عصاراتها وتحركت المعدة حركاتٍ تجعل اختلاطاً بين اجزاء الطعام والعصارة المعدية . بيد ان هذه الحركات في معدة الانسان تكون خفيفةً بالنسبة لما يحدث في معدة بعض الطيور الآكلة الحبوب فانها تكون قوية فيهم بحيث تقوم مقام الانسان لجرش هذه الحبوب . فيكون عمل المعدة الميكانيكي عند الطيور اشد من عمل معدة الحيوانات ذات الاسنان

وبحصر عمل الطبقة العضلية في معدة الانسان بثلاث فوائد . الاولى تحكيم حجم المعدة لكمية الطعام الموجود فيها . فتبقى جدرانها ملامسةً له من كل جهةٍ وتضغطه ضغطاً متساوياً . والثانية سد فتحتيها البوابية والقلبية لمنع رجوع الطعام الى الاعلى ومسكه عن الخروج للامعاء قبل اكمال هضمه . والثالثة اجراء حركات انقباضية فيها لدفع ما قد هضم من الطعام شيئاً فشيئاً الى الامعاء

وتدوم المعدة هكذا منقبضةً على الطعام داخلها سادّة فتحتيها حتى اذا ما قارب العمل الهضمي نهايته ضعفت مقاومة الطبقة العضلية عند فتحة البواب واسترخت فخرج الطعام المهضوم اولاً ثم المواد الغير المهضومة سواء كان من عدم قابليتها للهضم كلياً او من نقص هضمها في المعدة حتى تبلغ الامعاء ويكمل هضمها فيها

وقد شاهد بيومونت الذي راقب الفتحة الناسورية في معدة الرجل المذكور انفاً ان الطبقة العضلية للمعدة تدوم تنقبض وتعصر الطعام كلما دخل اليها وطالما بقي فيها وتتزايد هذه الانقباضات كلما تقدم الهضم حتى نهايته وجرب ان ادخل بلبوساً نحو طرف المعدة البوابي فانقبضت عليه وجذبته نحو فتحة البوّاب فاستدل من ذلك ان الطبقة العضلية هناك اشد مما في غير قسم منها . وقد لاحظ ايضاً ان ما كان مهضوماً من الطعام يكون ملاصقاً لجدرانها وما كان غير مهضوم منه يكون في المركز فاذا تحركت المعدة حركاتها المعلومة دفعت ما هو في المحيط الى فتحة البواب وبهذه الحركة عينها يندفع ما

هو في المركز الى الوراء نحو الفتحة البوابية فيتم من ذلك دورة دائمة تؤدي الى امتزاج الطعام جيداً بالسائل المعدي

اما التغييرات التي تحصل في الكتلة الغذائية من الهضم فهي ان الطعام يتحيل فيها الى مادة تسمى « كيموس » وهو جوهر يختلف تركيباً ولوناً حسب نوعية الطعام المتناول وانما هو على الدوام غليظ القوام كاللبن الرائب وحامض الطعم والرائحة

وعند استحالة الطعام الى كيموس تمتزج جميع موادّه الاصلية بحيث لا يعود يتميز اصل واحدة منها بعد اكتمال العمل الهضمي

اما قوة عمل السائل المعدي في مواد الطعام فعائدة بالاكثر الى حالة تجزئتها والى نضارة المادة ورطوبتها . فاذا كانت اجزاء الطعام صغيرة اتسعت مساحة السطح الذي يمسه السائل الهضمي فيشتد عمله في الطعام . لذلك وجب على الشخص ان يضغ طعامه جيداً باسنانه ويجزئه الى اجزاء صغيرة قبل ابتلاعه وكثيراً ما لوحظ ان هضم الطعام يكون عسراً عند من كان سريعاً غير متأنٍ في اكله او عند من فقد اسنانه ما لم يقتصر هذا الاخير على ما كان نضراً رطباً او سائلاً من الاغذية او يلتجيء الى قوة الصناعة لعمل اسنان اصطناعية

قلنا انه يسهل هضم المواد النضرة وهذا يدرك بسهولة اذ ان المواد الرطبة لا تقاوم فعل السائل الهضمي الذي يتمكن من اختراق اجزائها ويفعل فيها فعلاً متساوياً وبوقت واحد . انما ذلك لا يكون برهاناً على ان كل مادة سهلة الهضم تكون كثيرة التغذية بل من المواد العسرة الهضم ما كانت مادته المغذية كثيرة فان المادة لا تكون غذائية الا اذا كانت قابلة لمجانسة الدم ولا يتيسر وصولها الى الدم ما لم تكن قابلة الذوبان اما بالسائل المعدي او بافرازات اخر في القناة المعوية . فيوجد لذلك علاقة ضرورية بين قبول المادة للهضم وبين ما فيها من صفة التغذية

اما المدة التي تهضم فيها المواد الجامدة في المعدة فتعود الى نوعية الطعام والى نشاط المعدة وصلاحية عصاراتها والى ظروف حال الشخص في مدة الهضم . والذي ينبغي ملاحظته ان يكون قد هضم الطعام الاول قبل تناول الجديد حسب قول القدماء « لا تدخل طعاماً على طعام » ويلزم ادخال كمية معتدلة للمعدة لا قليلة ولا كثيرة ويجب ان تكون الرياضة قبل الطعام وبعده معتدلة حيث اذا كانت عنيفة اضرت

بالهضم . وللطقس الجوّي وللفصول فعل في ذلك ايضاً . واهم شيء اذكر لسهولة الهضم هو راحة البال فان الاشغال العقلية والهموم والاكدار كثيراً ما تجعل عسراً في الهضم خصوصاً اذا اشغل المرء فكره حالاً بعد تناول الطعام غير ان معدل المدة التي فيها يهضم الطعام في المعدة هو من ثلاث الى اربع ساعاتٍ غالباً

ولا يمكنني اشرح لكم الان بهذا الخطاب الوجيز كيفية التغيرات التي تحصل لكل صنفٍ من الطعام ولا ان اذكر لكم المدة اللازمة لكل نوع من الانواع فان ذلك يستوجب شرحاً وافياً ووقتاً كافياً يملكم اخيراً ولا يلذكم ومن احب تفصيل ذلك فعليه بالمطولات من هذا الباب

انما نتيجة ما قيل ان الطعام بعد دخوله المعدة وخضوعه لحركاتها وانفعل عصاراتها يمتص منه ما كان ذائباً او قابلاً للذوبان بسهولةٍ في سوائل المعدة وما بقي يستحيل الى مادة تسمى كيموساً اخصها مؤلف من المواد النيتروجينية ثم ينزل هذا الكيموس من فتحة البواب الى الامعاء حيث يهضم هضماً ثانياً مستحيلاً الى مادة يتسهل دخولها الدم بالامتصاص . وهناك اي في الامعاء تهضم المواد التي لم يكن من خصائص المعدة هضمها كالمواد الزيتية والدهنية وغير ذلك من مواد يفعل فيها الهضم المعوي الذي انهي كلامي بشرحهِ لكم ؛

قلنا ان المواد الزيتية والدهنية والنشا لا تهضم في المعدة لكنها تمتزج امتزاجاً جيداً ببقية الطعام وتخرج مع الكيموس من فتحة البواب وهناك يفعل بالجميع عصارة النكرياس والصفراء وعصارات غددٍ اخر كثيرة قلنا قبلاً عنها انها منتشرة في جوهر الغشاء المخاطي المبطن للامعاء

اما الصفراء فهي عصارة الكبد وفائدتها اولاً انها تعين في استحلاب الطعام الدهني اي انها تجزئهُ الى اجزاء او دقائق صغيرة جداً يمكن نفوذها من الاوعية الماصة الموجودة في الامعاء . ثانياً انها ترطب سطح المعى المخاطي فيتسهل عليهِ امتصاص المواد الدهنية . ثالثاً الصفراء تضاد فساد الطعام مدة وجوده في الامعاء . رابعاً انها مسهل طبيعي لانها تزيد افراز الغدد المعوية وتنبه الامعاء لطرد ما فيها لذلك عند حصول اليرقان لاحتباس الصفراء في الدم وعدم تفريغها في الامعاء يحدث قبض كما يحدث الاسهال اذا زيدت كمية افراز الصفراء

اما عصارة البنكرياس الذي هو غدة موضوعة وراء المعدة ففائدتها تشابه من وجه فائدة اللعاب بتكميل احالة المواد النشائية الى سكر ومن وجه اخر تشبه فعل الصفراء في استحلاب المواد الدهنية واخيرًا قيل عنها ولم يثبت بعد انها تساعد في تذويب المواد الزلالية

فاذًا عند ما تفعل هذه العصارات من الكبد والبنكرياس والغدد المعوية في الكتلة الغذائية تحيل الكيموس منها الى كيلوس وتستحلب او تجزئ المواد الدهنية ويصير الجميع صالحًا للامتصاص فتمتصه اوعية الامعاء تدريجًا شيئًا فشيئًا عند سير الكتلة من الاعلى الى الاسفل حتى اذا بلغت هذه آخر المعى الدقيق تغير لونها مائلاً الى الصفرة وصارت رائحتها كريهة . وعند بلوغها فتحة المعى الغليظ تخترقه فيمتص منها ما بقي فيها صالحًا للتغذية ويفرز اليها مواد تتعلق عليها تلك الرائحة الخاصة . وكلما تقدمت الكتلة الى نهاية المعى زالت ليونتها وتجمدت على الحالة التي تبرز بها من الجسد . وقبل خروجها منه تلبث مدة غير معينة في اخر قسم من الامعاء المسمى «المستقيم» مسوكةً عن الخروج بقوة انقباض العضلة العاصرة الباطنة التي ذكرتها فيما مرّ . وعند حصول الاحتياج الى ابراز هذا المتضمن ترتخي العضلة المذكورة وتفعل حينئذٍ الارادة على العضلات البطنية فتضغط الاحشاء ويندفع ما فيها الى الخارج فيخرج الجشيع المتكون من فضلات الطعام الغير المهضومة ومن مواد اخر غير صالحة لتغذية تفرزها الامعاء

ومرور هذه الكتلة من اول الامعاء الى نهايتها يتم بحركاتٍ خصوصية في هذه القناة بفعل الطبقة العضلية الداخلة في تكوينه . وهذه الحركات تكون بطيئة بحيث يحصل منها وقت كافٍ لتعريض الكتلة الغذائية الى السوائل المفرزة من غدد الامعاء ولامتصاص ما كان منها صالحًا للدخول في الاوعية الماصة والاوعية الدموية ايضًا . ويتسبب في هذه العاقة ايضًا تلك الثنيات من الغشاء المخاطي المسماة صمامات كاذبة وقد مرّ ذكرها . اما حركة الامعاء من بدايتها الى نهايتها هي دودية اي شبيهة بحركة الديدان عند انتقالها من مكان الى آخر اي حركة موجيَّة من انقباض وانبساط وذلك ان الالياف العضلية الطولية المار ذكرها تنقبض اولاً في قسم من اقسام المعى وتجذب نحو الاعلى والوراء ما يجب دفعه الى المقدم ثم تنقبض الالياف الحلقية في ذلك القسم من الاعلى الى الاسفل فتندفع الكتلة للاسفل وهكذا على التوالي كل قسم بعد آخر حتى

تبلغ الكتلة النهاية . وهذه الحركات هي بطيئة بحالة الصحة بحيث لا يشعر بها العقل ما لم تسرع بواسطة منبه . واذا انقهقرت هذه الحركات الى الوراء منع الصمامُ اللفائفي الاعوري عود المتضمن في المعى الغليظ الى الدقيق

ليس من خصائص موضوع خطابي المقتصر على وظيفة الهضم ان اشرح لكم كيفية دخول المادة المهضومة الى الدم وبلوغها انسجة الجسد غير إنهُ تتمة للفائدة ولو خرجت عن حد موضوعي اتبع سير الكتلة الغذائية الصالحة للامتصاص باختصار كلي من الامعاء حتى بلوغها الاوعية الشعرية التي تنقلها لتغذية الانسجة

قلنا ان في الامعاء اوعية ماصة تمتص الكتلة الغذائية المحولة الى ما يسمى كيلوساً فهذه الاوعية تدعى كيلوسية وهي تتناول المادة الغذائية وتمر بها بغددٍ منتشرة في التجويف البطني ثم باوعيةٍ اخرى وهكذا يمر الكيلوس من اوعيةٍ الى غدد ومن غددٍ الى اوعية حتى تجتمع اخيراً هذه الاوعية بقناةٍ واحدة كبيرة تسمى القناة الصدرية ممتدة من آخر الصدر حتى اوله في الاعلى وهذه القناة تحمل الكيلوس من الاوعية الصغيرة وتصبه في وريد باعلى الصدر يسمى الوريد تحت الترقوة الايسر (١) وهناك يمتزج ببعض الدم الراجع من الاعضاء بحيث صار غير صالح للتغذية . ومن هذا الوريد ينصب الدم في وريد اخر اكبر حجماً منه يسمى الاجوف العلوي يفرغ ما فيه في القلب (٢) في تجويف يسمى الاذين الايمن ينفتح البطين الايمن ومن هذا البطين يندفع الدم بوعاء كبير هو الشريان الرئوي الذي يتوزع في جدران الرئة وهناك يتطهر الدم من تعرضه وهو في الاوعية الصغيرة لفعل اوكسجين الهواء ويصير صالحاً للتغذية فيسير من هناك في اوعيةٍ اخرى صغيرة تسمى اوردة تجتمع اخيراً الاربعة اوعية كبيرة تصب في الاذين اليساري ومنها البطين الايسر حيث تدفع بقوة انقباض القلب الى وعاء غليظ يخرج من هذا التجويف يدعى الاورطي ومن هناك يتوزع بفروع عديدة تصغر كلما بعدت عن القلب وتغذي اقسام

(١) ان هذا الخطاب عند ما أُلقي كانت تحت يد الخطيب رسوم يشير اليها تسهل على السامع ادراك الشرح اذ كان يدل على كل وعاء وكل جزء . لذلك يتعسر على غير الخبير بهذا الفن فهم بعض اشياء في هذا الخطاب بدون النظر الى الصور المقتضية

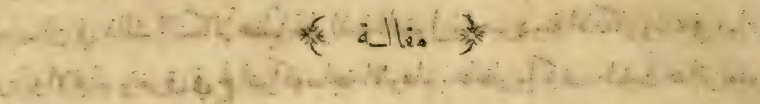
(٢) القلب قسمان يمني و يساري منفصلان عن بعضهما بحاجز وكل قسمٍ منهما فيه تجويفان العلوي يسمى أُذَيناً والسفلي يدعى بطيناً

الجسد التي تمر فيها وتخترقها فتنتخب الانسجة من الدم ما ينقصها وما يلزم لتكوينها وللنمو بعض عمّا خسرته فيتمثل هناك ذاك الجوهر المنتخب الى جوهر النسيج نفسه في ذاك العضو حتى اذا ما بلغ الدم سائر انسجة الجسد باوعية تسمى الشرايين عاد ما فضل منه باوعية اخرى تسمى اوردة تجمع الدم الذي فسدت صلاحيته للتغذية حينئذٍ وتأتي به الى الاذين اليمني حيث ينبع سيره الاول الذي ذكرته لكم بكل اختصار

فهذا سادتي عمل الهضم في الانسان من بدايته الى نهايته اوجزت به كثيراً اتباعاً لظروف الحال متحاشياً التطويل في ذكر هذه الوظيفة البديعة الميكانيكية والكيمياوية ومع كل اختصار هذا الخطاب نستدل منه بالكفاية على عظم حكمة ذلك الفاعل المبدع المكون بمجرد ارادته هذه الغرائب والعجائب التي لا يمكن للطبيعة وحدها ومن ذاتها وهي غير عاقلة ان تاتي بمثلها او بما يشبهها قليلاً . وقد وضعت هذه الموجودات تحت نواميس راسخة وربطت بروابط لا تنفك . فصح ما قال النبي داود «كل شيء بحكمة صنعت يا الله» فان مطابقة البناء للوظيفة دلالة كافية على ان ذلك تم بيد خالق حكيم سبقت له الارادة والتصور قبل ابداع ما ابدع . كيف لا وفيما ذكرت فقط من وجه وظيفة الهضم برهان يكفي لذلك . وها اني اجمل مستخلصاً وملخصاً ما شرحت سابقاً تاييداً لما قلته من ان مطابقة البناء للوظيفة دليل على وجود الخالق وحكمته سبحانه : اولاً وجود الاسنان في بداية القناة الهضمية لتجزئة الطعام وسهولة مروره وهضمه ولما كانت الاجزاء الجامدة والصلبة لا تمرّ في انسجة لطيفة بدون اذاها اوجد الخالق اللعاب لترطيب اجزاء الطعام ولما كان لا بد للآكل من ان يذوق طعم طعامه ليلتذ به وتنتبه رغبته في تتمة هذا العمل الضروري لقيام الحياة كان من فائدة هذا اللعاب ايضاً حل المواد الجامدة لتشعر بطعمها اعصاب الذوق الموضوعة في بداية القناة الهاضمة ايضاً . واذ لزم لبناء جسم الانسان نوعان من الطعام وهو النيتروجيني للتكوين والهيدروكربوني للوقود اوجد الله المعدة لهضم الاول منها والامعاء لهضم الثاني . والنكتة التي اذكرها لكم من حكمة الباري في هذا الباب ايضاً هو انه لما كان الانسان في مدة الشتاء يحتاج الى حرارة اعظم لجسمه من مدة الصيف مال طبعاً في هذا الفصل البارد الى تناول الاغذية الهيدروكربونية كالمآكل الدهنية والحلوية . وحيث كان كل طعام يدخل الجسد لا بد ان يستحيل الى جواهر الانسجة الاصلية متمثلاً لنفس الدقائق الهالكة كوّن الله في

المعية والامعاء معملاً كيماويًا لجعل هذه التغييرات في الطعام واوجد هناك حرارة كافية لطبخه مرة ثانية . ولما كان لابد من ان يدخل للجسد مع مادة الطعام نفسها موادٌ غير قابلة للهضم مثل قشور بعض الثمار وغير ذلك مما اذا بقي في القناة الهضمية سبب ضررًا بليغًا للجسم رتبت العناية طريقًا لابراز هذه النضلات الخ

فكل ذلك سادتي وحسن هذه المطابقة في البناء الى الوظيفة الا يدلنا على وجود مبدع خالق حكيم وعناية دائمة الوجود تعتني بحفظ نظام الاكوان التي بوحدانية نواميسها ايضًا تدلنا على وحدانية هذا الخالق القادر . وهل للطبيعة الخالية من الادراك استطاعة على اعمال تدل نتائجها على ادراك العامل ضرورةً . لا لعمري ولا بشرٌ اكثر من الطبيب والطبيعي قادرٌ على تقدير هذه العناية المبدعة قدرها . لان الطبيب والطبيعي باطلاعهما على اسرار وغوامض الطبيعة يشعران في داخلهما بما ينبههما للاعتقاد بذلك المكون الاله الوحيد . وهذا الكلام على ظني ينفي وهمَ بعض العامة التي تزعم ان الاطباء لابد من ان يكونوا كفرةً . نعوذ بالله . كأنَّ اسم الكفر مرادف بالضرورة لاسم الطبيب . كلا سادتي ان الطبيب اكثر من سواه يقرّ بوجود الخالق سبحانه وان وجد من الاطباء من لتوغلهِ في درس المادة ومعاطاتهِ اعمالهُ من المادة ينسب اليها كل فعلٍ فلا يكون ذلك قاعدة مطلقة على العدد الكبير منهم الذين ينظرون الى ما وراء المادة مستنيرين بشمس العلوم غير المادية ناظرين بعين التهيب والوقار لتلك القدرة السامية المبدعة القادرة على كل شيء لها المجد والسجود دائمًا . . . .



مقالة

في تفنيد مذهب الماديين

لحضرة الاب الفاضل الخوري لويس السمعاني احد اساتذة مدرسة الحكمة
ومن اعضاء الدائرة العلمية فيها

(ايها السادة)

ان الفلاسفة المتقدمين والمتاخرين اجمعوا على ان الانسان ذو نفس ناطقة . وهذا من القطعيات التي تدرأ الشك والايهام وتزيل الاحتمال والابهام كما يحققهُ عرفاننا ذواتنا الم نترع منزع العناديين والسوفسطائيين والمتريين في كيانهم الاقنومي المنكرين المبدأ الحاس فيهم والعاقل والمريد . بيد انهُ لم يخلُ عصرٌ لم يبحث فيهِ عما اذا كان للنفس الانسانية كيانٌ خصوصيٌ غير ماديٌ تستقلُ بهِ اي بسيط وروحي متحدٌ بالجسد أو انها ليست سوى خاصة للمركب واحد العناصر . فاصحاب القول الاول هم الروحيون «سبيريتواليست» الذين استنفدوا في اثباتهِ وسعهم واصحاب الثاني هم الماديون «ماترياليست» الذين أذرعوا في اقامة الحجج عليه وبذلوا جهد المستطيع

فلا يعزب عنكم «ايها السادة» ان كثيراً من الحكماء القدماء بعد ان استناضوا واغرقوا في التنقيب والتنقير عن طبيعة النفس اطبقوا على ان لها ماهيةً تفارق ماهية الاجسام وتغايرها ومع ذلك فقد عبثت بهم ايدي الاختلاف في الراي والنزعة الى تعيين تلك الماهية لجنوفهم في البحث عن الطريقة المثلى وعدم تحرُّجهم في جلائل المسائل ودقائقها فان منهم لفريقًا بعد ما استجاشوا ذهنهم احتسبوها ناراً لطيفة جداً وفريقًا جزءا من الاثير وعدَّها بعضهم حاصل تمازج الاسطقسات وتماسها وخيل الى غيرهم انها غاز منبثٌ منثور في اقطار البدن الانساني حتى ان شيشرون ذلك الفيلسوف المصقع والخطيب

الشهير المصدع بعد ان اورد اراء الحكماء في ذلك اخال عليه واستغلق فما كذب ان قال مرتابًا مهتونًا اي هذه الاراء اسد واحق فاجاب الله اعلم ثم قال وابها اكثر احتمالا اجاب ان في ذلك لاشكالاً عظيمًا تحار لديه العقول وتحصر دونه الافكار وتتيه في موامي عرفانه الافهام وتغرق في لج ادراكه سابحة الاوهام. فانظروا كيف طبقت بصائر بعض الاولين طخاف الاغلاط وغرر الاوهام. وانما شرعت بهم على هذه الموارد الوبيئة الوخيمة اهواؤهم الذميمة فحركت نوازع خواطرهم الساكنة وسوانح قرائحهم الخامدة فلم يدبروا القول الصحيح

واذا استبطنا مرتابي بعض المتاخرين نراهم اخذوا باخذ الاولين لاعتسافهم عن جادة الصواب وتعسفهم في ما اجمع عليه الفلاسفة: ففي القرن الثامن عشر ظهر كابانيسوس وبروسي وما فتئا يخبطان في سفاسف الاقوال خابط ليل أليل حتى ادتهما خاتمة الخبط والعسف الى ان قصرا مصير تعليمهما على ان وجود الانسان الادبي قائمٌ بالاجسام فقط وانما يحس لان له اعضاء ليس غير مكذبين بكل اعتقاد آخر

وفي عصرنا الحالي قد تحدّى الاقوال الآنفة الذكر الموسيو ليتره والفونس موري وغيرهما كثيرون فخالوا أنّ النفس مجموع وظائف الدماغ والنخاع الشوكي ليس الاّ. وان الدماغ بالنسبة الى الادراكات العقلية كالتنفس والهضم بالنسبة الى الرئة والمعدة. وقد افضى التنكب عن مناحي الحق بالموسيو فرياك وغيره من العندية الى ان ذهبوا الى انّ ما يعقل في الانسان هو الفوسفور فعلى قدر احراز الدماغ منه يزيد المرء حصافةً ويجود ذهنا. ولقد تطرقوا الى بدوات اخرى سخيفة تستك منها مسامع الادباء الالباء قد بنوها على شفير الوهميات المنهال الهائر. ولا يذهب عنكم ايضًا ان البعض في ايامنا وبلادنا هذه تلقفوا تلك المبادىء الخلية من سند يستظهرون به واشربوا في قلوبهم التخذلق على اخص القضايا الفلسفية وهم لا يركنون لا لحمتها ولا سداها. ذلك بتصفحهم اساطير بعض الخليعين المتهتكين وعدم اضطلاعهم وتنصبهم في الحقائق فاغرام البال الخلو من المباني الوثيقة بان ينكروا روحانية النفس الانسانية وبساطتها ويقيسوا ذواتهم بالعجماوات جوهرًا وعرضًا ويرفعوا الغيرية بينهم وبينها سنخًا وفندًا. فحاكوا العندية نزعة والمعتزلة نحلة. وما كان احق بهم ان يتبعوا المذهب الصحيح واولاهم بان ينبذوا سواه ظهريًا من غير هوادة واغضاء اثرةً للحق واخذًا بسديد الحجة. ولاسيما والتشبث باهداب

ذلك الراي القائل السخيف بجحف بخلود النفس و يذهب بالاخرة و بغيرهما من الحقائق التي اذا ما نقوضت تداعت اركان الدين الحق واندكت دكة واحدة لا محالة . واني وايم الله لاجلنكم ايها السادة عن معرة تلكم الغواية لعلي ما ترامت اليه مرامي المعينكم من وجوه الصواب ومناحي الحق الصراح اللباب . فتنتكبون عما استضعف من الاراء المعتلة المختلة وتنحون ما ذهب اليه الحكماء كيف لا وانتم تابون الا الذب عن بيضة الحقيقة الغراء باسلات السنتكم الحداد وروائع بيناتكم البتراء . هذا ومما ذكرناه الماما بما ذهب اليه الاقدمون والماعا لما ابرزته طوارق القرائح تبين مضادة مذهب الماديين لمذهب الروحيين . فيتعذر اذ ذاك علينا ان نحاول بدءًا من ايثار احدهما والافتئات به لئلا نكون من المهترين ونبيت كالمختطبين في ليل بهيم . فالراي السديد الواجب ان يستمسك بعروته الوثقى هو ما ذهب اليه الروحيون القائلون ان الانسان مركب من نفس وجسد يفارق احدهما ذاتًا وكينة . واني لاقفو في اقامة الحجج عليه ادراج الحكماء الذين اشبعوا الكلام على الفرق العظيم بين النفس والجسد وخطاوا باصالة رايهم فيالة رأي الماديين مستنهجًا منهاج ذلك الفيلسوف الالمعي واللاهوتي اللوذعي علم معامي المشكلات لعسيفها وكشاف المجاهيل لمستعرفها وفتاح المقفلات ومالك ازمتها الا وهو ماري توما الاكويني جذيل دائرتنا المحكك وعذيقها المرجب الذي ما من مسالةٍ الا وله فيها اليد الطولى والقدح المعلى قاسمًا مقالتي الى قسمين ففي القسم الاول اجيء بالبينات فرقًا بين النفس والجسد . وفي الثاني اكذب بما استندوا اليه واغتذوا فيه هاقتين .

فاقول اولاً ان ذات الاشياء لا تعلم وتوصف ولا تعين وتعرف الا بافعالها وخواصها وهذا مما لا ريب فيه . فاذًا تغاير الافعال والخواص يشف عن تغاير الذات . والحال لا مناسبة بين المعلولات النفسية والمبدإ الهيولي المركب من الاسطقسات . على ان النفس تتذكر ما طوته حقب الدهور من الطوارئ الغابرة وتتقلب في ضروب القياسات العقلية والنقلية وتتصرف في مناحي البينات اللمية والانية وتفتن في اساليب البرهان وافانين التبيان وتلمح الشوط البعيد البطين قبل حدوثه وتترامى بها مرامي الذكر من امرٍ الى اخر وترجم بالمستقبلات وتحدس فيها وتروي في الامر فتكتنهه وتتعقب امورًا وتستقريها وتستشف لها سجوف المحسوسات فتعقل الماهيات وتتوخى الرغائب حرةً متحرية من غير اكراهٍ لا داخلي ولا خارجي . فانى يتاتى والحالة هذه التناسب بين تلك

المفاعيل ومجموع ذرّاتٍ هيولية بل يلزم عن هذا البرهان انه ان نسلم بالمناسبة منكرين تناقضها يكُ حالتئذٍ المعلول اكمل من علته كمالاً غير متناهٍ . وان هذا الاّ محال مبين وضلال بعيد . لانه اي تناقض اوضح من ان غير المالك يملك بان تكون المفاعيل غير القابلة الامتداد والتجزىء صادرةً عن الدماغ او شيء اخر هيولي يتجزَّأ حسب مدعى الخصوم . ويزداد هذا البرهان صراحةً بان مآل كيفيات الجسد والدماغ ومرجعها الى ثلاثة شكلٍ وحركة وسكون والحال ان المعلولات النفسية لا تشترك البتة في هذه الخواص بل تنقضها نقضًا تفصيليًّا فلا يطلق على المدركات والتصديقات والتصورات والانتقالات الذهنية انها مثلثة او مربعة او مستقيمة او منحنية الخ ولا يمكن ان يحمل عليها السكون والحركة الطبيعيان المختصان بالاجسام كما يثبته الاختبار المتتابع لدى الناس قاطبةً . فهذا اكفى دليل واوضح برهان نعقد عليه ضمائر ذوي البصائر

(٢) ان الحس الداخل يحقق لنا ان انانيتنا ثابتة لا تحول ولا تتغير رغمًا عن تجليات قوانا المختلفة وقسرًا عن تقلبات كياننا المتوالية المتواترة . وعليه يتعذر علينا الريب في عينيتنا اي في اننا لا نفتأ نحن ايانا اعياننا ما لم نرتب في وحدتنا اي في عدم تجزي كل منا الى اقانيم جمّة . لان العينية ليست سوى الوحدة منسوبة الى تتابع الازمنة . وان نقم على ذلك نكيرًا فلا نجد حِ بدًّا من انكار الذاكرة فالذهن فالارادة فالحرّية فاشرف احساسات قلبنا . لانه كيف ينهيا لموجود يتغير تغيرًا جوهريًّا ابدًا ذكر ماضي افعالهِ وسالف كينتهِ واقنوميتهِ وانى يتسنى له ان يقيس غائب الحوادث بشاهدها وهو يتغير ذاتًا وكينة : وانه من الاوليات والبديهيات ان لا تصور ولا تصديق ولا برهان ولا استدلال ولا استقراء من دون الذاكرة ولا ارادة بدون الذهن لامتناع كون الشيء موضوعًا لها قبل عرفانهِ ولا حرية بدون كليهما اي الذهن والارادة وذلك ظاهر عند الجميع . فاذًا من لا يجع بانه لا يزال هو هو اياه يكن منكبًا عن محجة الاختبار وعنيدًا عاتيًا . امّا جسدنا فلا يبرح يتقلب في قوالب الزيادة والنقصان والاستبدال والحولان وتلك الانانية ثابتة لا يعتورها تغير ولا استبدال . فيا ليت ان الماديين تثبتوا في حقة هذه الملاحظة فاقلعوا عن سفاسف خطراتهم ونضوا عن وجوه اضاليلهم براقع التمويه . وناهيكم ببينة بانه لو لم تكن افعال العقل والحس الداخل مختصةً بفاعلٍ ممتاز عن الاعضاء وهو النفس لكانت مختصة حسب زعم الخصوم بوظائف الدماغ

والحال لا تناسب بين الافعال المذكورة والوظائف الدماغية : لان تلك الوظائف وان برزت الى عالم الشهادة يتعذرُ عرفانها بدون الاعضاء والآلات الهيولية التي تنجزها وتاتي بها الى الفعل لانه كيف يتسنى لإمرءٍ ان يحصل على تصوّرٍ علمي مدقق نظرًا الى التنفس ولا المام عنده بالرئة او انى يتهيأ له ان يتمثل جريان الدم وهو جاهل للقلب والشرايين والعروق مع اننا نستطيع بالضمير ان نعرف قوانا العقلية والادبية وافعالها وموضوع هذه القوى نفسها عرفانًا منفصلاً ومحللاً ايًّا تفصيل وتحليل ولو جهلنا الطبيعة ووظائف الدماغ . فاذاً الا فسحة لهم ولا مندحة عن التسليم ببساطة النفس وروحانيتها

. ان لنا تصوّراتٍ نتمثل بها صور الموضوعات واحكامًا قطعية وقياسات يقينية نستدل بها على نفي ما يريبنا من الحدسيات والظنيّات وانكار الوهميات التي تفرط اليها الواهمة وما هذه الاّ افعال بسيطة غير متجزئة لانه لو سلمنا بان التصور كيفية للدماغ لا يعدو ان يكون اي التصوُّر في كل ذرةٍ من ذرات الدماغ او ممتداً فوق مجموعها او منزويًا في احد اجزائه وكذا القول عن الحكم والقياس . والحال ان هذه الفرضيات الثلاث منكرة . فالاولى لانها تضادُّ الحس الداخل لان التصوّرات العقلية لو كانت فوق كلٍّ من ذرات الدماغ لكثرت على قدر كثرة الذرات وكان لنا التصور نفسه نيفًا والف مرة . والضمير يشهد ان كل تصورٍ تصورهُ واحدٌ فرد تنفعل بهِ انانية واحدة . والثانية منكرة لان التصور لو كان منبسطًا فوق مجموع اجزاء الدماغ لامكن تجزؤه وافراز اجزاء منه كما يمكن تجزؤ الدماغ وافراز اجزائهِ . والثالثة كاختيها لاننا نستدل بالضمير على ان كل تصور يكيف الانانية كلها جمعاء لا بعض اجزائها ولاسيما وان الجزء المتصور على هذا الافتراض يبقى ذا امتداد وتركيب فيقع في الفرضيتين المدحضين قبلها . ويمتنع ايضًا ان يكون الحكم من افعال الدماغ . لان الحكم القائم باتفاق تصورين او اختلافهما يستلزم اسبقية ادراك النسبة بينهما اثباتًا او نفيًا فيما انه يمتنع على مبدأ مركب ممتد ان يتخطى الى تدبر العلائق المعنويّة اذ لا تردد بين اجزائه ولا تداخل . فلو فرضنا ان جزء الدماغ المستقر ذات اليمين عقل احد ذينك التصورين وجزءهُ الكائن ذات اليسار عقل التصور الاخر لاضحى الحكم شيئًا عدميًا محضًا لمانع التركيب وعدم التداخل والتردد بين اجزاء الدماغ . واذا كان الحكم ممتنعًا بالذات في الجوهر المركب فلان يكون فيه القياس كذلك أولى . لان الحكم يتالف من تصورين والقياس من ثلاثة

تصورات وثلثة احكامٍ متوالية نترى . وكذا القول في تذكر ما ادرجته في طي النسيان القرون الخوالي من الحوادث الفائتة الدابرة والتردد على الشؤون الذاتية والافعال الباطنة الخصوصية بجامع الحجة . فاذًا التسليم بصدور التصورات والتصديقات والانتفالات الذهنية عن الدماغ او جوهرٍ مركب محالٌ مبين ولغوٌ صراح . فاذًا يجب ان يكون في الانسان مبدأ غير هيولي يغاير الجسد والدماغ مغايرةً جوهرية لتصدر عنه تلك الافعال الغير الهيولية وهو ما ندعوه نفسًا بسيطةً وروحية

ان القوى لا تفوق مبدأها كمالاً . والحال ان العقل الذي هو قوة عضوية حسب رأي الخصوم لا يقتصر على الحسيات مجتزئًا بها بل يتصور ويحكم ويبرهن امورًا معنوية لا تطيق ادراكها الحواس عجزًا وتقصيرًا نحو الله والحق والخير والتضايف والامكان والأزل والابد ونحو ذلك مما يتعدى العالم الهيولي فلو كانت نفسنا مادية لكان من التناقض ادراكها هذه الموضوعات الغير الهيولية . وزد عليه ان القوة العضوية لا تدرك الا ما يوثر في المشاعر اما العقل فقد يحكم احكامًا تضاد التأثرات العضوية . على انه اذا عوّج الماء والنور مثلاً عصًا قويمةً فالبصيرة تقوم أودها البادي للابصار وتسدد ما انآد على الحواس من وجه الصواب . ثم اي شيء اعجب لاولي الالباب من ان الحواس تشعر بما لا يوثر فيها واي بدعٍ اغرب من انها تكتنه الاشياء بالتحليل والتركيب وهي لا تدرك الكليّات . اما العقل فيدرك الكلي والجزئي هي لا تتجاوز الحسيات الى المعنويّات اما هو فيتجاوزها هي لا تتردد على ذاتها وافعالها وهو بالعكس هي تكلّ من عظمة الموضوع كما يظهر في الحاستين السمع والبصر وغيرهما وهو يجود زكانةً ويزداد حصافةً على قدر مزيدها وعظمتها . فيتخلص من ثمّ الفرق الكلي والكيفي بين الحواس والعقل لانه من المقرّر ان تنويع القوى يظهر بتنويع الفعل وانه يعتبر في فعل المعرفة شيئان المادة والصورة . وعلى كلا الاعتبارين يفوق العقل الحواس : مادةً لانه يطلع على الاعراض والجواهر اما الحواس فلا تدرك غير الاعراض : وصورةً . لانه يعلم الكليات والجزئيات بخلافها فانها تدرك الجزئيات لا غير . وفي الجملة اننا نلجأ بهذه البينات الى التسليم بان آية الفرق بين الحواس والعقل هي ان الحواس قوى عضوية وان العقل قوة لمبدإ بسيط وروحي يعرف بالنفس الناطقة التي يستحيل ان يحمل عليها لفظ مادة لما مرّ . وفضلاً عمّا مرّ اقول ان ما يلذ له الخير والروحي ليس بهيولي ولا متعلق بها .

لان كل شيء يميل الى ندّه وينفر عن ضدّه ويستمتع بما يماثله ويجانسه ويسام ما يضاده ويغايره فلو كان المبداء المتفكر في الانسان مادة لم يكن لهُ قط ميل الى الخير الروحي كالفضائل والعلوم والشرف والتاملات العقلية والنظر في الاغيار الكونية ونحو ذلك مما تميل اليه الارادة الانسانية طبعًا بشاهد الاختبار اليومي . فاذًا الخ . ثم ان الجواهر المادية لا تطيق حراكًا بذاتها فلا بد ان تكون حركاتها ناشئة اما عن جاذبية واما عن مصادمة واذا فرضناها متحركة لا تسكن بذاتها واذا تحركت بقوة خارجيه طرأت عليها فانها تستمر على حركتها الى ان تعرض عليها قوة اخرى تسكنها . ذلك يوضح انها عادمة الفاعلية الذاتية والاختيارية وخاضعة تحت ضرورة الاكراه مع ان للانانية فاعلية اختيارية لا تقبل الحركة من قوة خارجية بل هي تمنحها لذاتها من تلقاء نفسها ولا تزال سيدا لرغباتها وامانيها فهي بالخيار بالنسبة الى افعالها تتصرف فيها كيف يطيب لها ويحلو اذ يمتنع اكراهها على انشاء افعالها الاصدارية او على عدم انشائها . اما المادة او الدماغ فبالعكس . فهل شوهد ان الدماغ تحرك باختياره او ابطئت او اسرعت حركتهُ بجريتهِ : فاذا قد قام الحق وبان بان حمل البساطة والروحية على النفس البشرية حمل مواطاة اي ان عدم الهيولية محمول عليها بالحقيقة كحملهِ على الملك . وتلكم ايها السادة حجج كلية السداد تحق الحق وتبطل الباطل . ومع ذلك لا نشاء ان نطوي كشحًا عن البرهان الادبي الذي يسفر غمائم اوهام الماديين سفورًا ويزيد الحقيقة جلاء وظهورًا الا وهو ان مذهب الماديين يلاشي الاداب ويدعو الى خلع العذار واطراح المحظورات . لانهُ ينكر اولاً الحرية البشرية والمسئولية : فان ما كان مادة كان غير حر وغير مسئول لا محالة ثانيًا يكذب بعدالة الشرائع وصحة نهي الضمير عن النكر وامرهُ بالعرف لان الشرائع الادبية يمتنع سنها على الجمادات والعجماوات لكنها تسن على الموجودات الناطقة العاقلة والحرة التي تشعر بقوارع الضمير وزواجره وتخضع لثواب او عقاب . ثالثًا يجحف بالشريعة الادبية عينها ويرفع الغيرية والمضادة بين الخير والشر بجامع الحجة رابعًا ينكر الآخرة وخلود النفس . لان هاتين الحقيقتين تستندان الى بساطة النفس وروحانيتها وبذلك يذهب بوجوب الاستكانة للشرائع وبغير ذلك من الحقائق الثابتة الراهنة . والحق يقال ان من تخبر رأيهم تحقق انهُ سخيف ساقط يضاد مظهر الحق ومخبرهُ ويخالف تواً اصول الحكمة النظرية والخلقية ورسوم الفلسفة النقلية والعملية وبينات الحس

العام والانانية فاذاً قد قام الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقًا . وقد آن لنا الان ان نبحث عن تصاريف وجوه اعتراضاتهم ومحمل مماراتهم .

فيقولون اولاً ان نفسنا وتصوراتنا واميالنا موكولةٌ الى الاعمار والامزجة والاهواء والامراض

فنجيب بالتفصيل اناً لا نشك في ان السن كثيرًا ما توثر في تجليات النفس واستثمال كنائن معقولاتها ولا ننكر ان الدماغ آلة لافعال النفس والآلة في الطفل غير صالحة لابراز افعال نفسهِ كما نعدم صلاحيتها اذ طرأ عليها فساد كما في المجانين الاَّ اننا لا نسلم للخصوم بان التعقل ناتج من تصلب الدماغ لانه يقتضي لنتج التصورات التردد والاستدلال وامعان الفكر والامتحان ولا مناسبة بين هذه وصلابة الدماغ او لينهِ . ثم ان ما نزعوا اليهِ من ان المزاج ينشئ اخلاقًا حقيقية واميالاً اكيدة وان فضائلنا ورذائلنا موكولة اليه للغوميين . لان الاختبار والحس الباطن يشهدان لنا ابدًا ان لنا الخيار في عمل الفضيلة او الرذيلة والخير او الشر ولا يكرهنا المزاج على شيء من ذلك ونعلم يقينًا انهُ يمكننا مقاومة اميالنا وان فينا مبدا روحيًا غير المزاج والميل برؤسهما ولهُ الحرية في الانقياد لهما او في كبحهما ونتحقق ان كثيرًا من الحكماء والفضلاء انتصروا على مزاجهم ودانوا اميالهم كما ان كثيرين اساءوا ويسيئون التصرف فيها . فاذًا وان كان المزاج مساعدًا على بعض الفضائل او الرذائل الاَّ انهُ ليس مصدرًا او علة ضروريةً لها كما تثبت ذلك شواهد الامتحان . اما من حيثية الامراض فقد جاءوا افكًا . فلا يفتأُ من منوا بها على ما كانوا عليهِ وهم اصحاء وان سامتهم سوءَ العذاب الاَّ تلك التي ترفعهم عن ذواتهم كالجنون والعته والعنك والسكته . وعليهِ نرى في المستشفيات بين المرضى الذين انهكهم الداء عينه واضناهم السقام نفسه اختلافًا عظيمًا في السجايا وتباينًا جسيما في الاخلاق . فاذًا قد محا فلق البيان غياهب الاشكال الذي قذفتهُ خواطر خاطرهم وصادته قانصة سوانحهم .

يقولون ثانيًا ان الانانية هي النفس عينها . والحال ان المجانين ليس لهم انانية اي لا يترددون على الوجدانيات ولا يبرهنون الخارجيات الخ فاذًا لو كانت النفس شيئًا بسيطًا وروحيًا ممتازًا عن الجسد لما انفكت تمارس افعالها

نجيب بان الانانية هي النفس عينها مراعاةً لتجليات قواها في عالم الشهادة المنتهية الى درجةٍ من الظهور الممكن ان يتوقف لمانعٍ ينشأ عن الاعضاء من غير ان ينجم عنه

انقطاع لكيان المبدإ الروحاني اي النفس . وعليه يكون اطلاق لفظة نفس على الانانية على سبيل المجاز المرسل . ذلك بان الانانية تسمى نفساً اذا ما كانت النفس مترددة على وجدانياتها وافعالها والاغيار الكونية الاَّ ان الانانية لا تجلي لنا دائماً عنها ولا تمثلها تحت صور كيانها جميعها فتكون النفس مراراً من دون ان تعرف ذاتها واذا كانت تجهل ذاتها فلأن تجهل افعالها اولى . والاَّ فاين تكون النفس حين يكون الانسان جنيناً او وليداً زمان لم يكن ليتردد على ذاتهِ و يكون وجوده الداخلي مقتصراً على بعض صور حسية ملتبسة متشوّشة او اين تكون في حالة الاغماء والسبات والنوم الخلي من الاحلام وفي حالة الجنون والعتك والسكتة . وهذا لا يمنع ان تكون النفس روحانية ممتازةً عن الجسد بل يؤذن بان اتحادها بالجسد يقضي عليها احياناً بان لا تظهر تجلياتها او ان تظهرها متشوشة لتشوش الات الجسد المتحركة بهِ وسيتضح ذلك اكثر وضوح مما ياتي

يقولون ثالثاً ان النفس لا تزال تتقلب في قوالب الاغيار الجسمية . لانها تشبُّ وتهرم كالجسم ولان الاعضاء اذا تشوش نظامها تشوشت لا محالة الافعال العقلية . وعليه فان تجلي القوى العقلية في مظاهر الشهادة ومجالي الكيان موكول الى حالة الجسد والعلل المؤثرة فيه . ذلك مما يسفر عن ان العقل قوة للانسان والانسان ليس بمركب من النفس فقط فيكون العقل قوة للمركب ومن ثم يكون قوة عضوية

فاقول اولاً ان النفس لا تتقلب في قوالب الاغيار الجسمية عينها لا دائماً ولا على وتيرة واحدة . لان الجسد ايام يكون ضليعاً قويا في ربعان الفتاء وشرخ الشبيبة تكون حدة قوة العقل وابرام الاحكام اقل مضاء واصابةً لهدف الحقيقة منهما في سن الشيخوخة والكبر حين يكون الجسد هزيلاً غثيثاً . ثم ان ما يكسب الجسد نموًّا ونشوًا ومتانة يسوم النفس غالباً ضرًّا جسيماً و بالعكس اي ان ما يجعل العقل ذا فاعلية عظمى وقوة كبرى بذريعة التبحر في المسائل ووسيلة التعمق في جلائل القضايا والغياصة على دقائق المعاني يكون على الاكثر مجلبةً لهزال الجسم وشحوبهِ وداعياً لغثاثتهِ ونحولهِ ولان ما تستلذه الحواس كثيرًا ما تعافهُ النفس وتتقزّز منه نافره : ثم اذا ا جبر الجسد على فعل امر ما او تركه فالنفس لا تكره على الاقدام عليه او الاحجام عنه . واذا قطعت مثلاً جارحة من جوارح البدن الانساني فلا يقطع احد اجزاء النفس . فاذاً انتشار قوى النفس وعدمهُ يغايران

نمو الجسد ونقصانه . فالجسد ينمو بالنسبة الى جوهره بقبول اجزاء حديثة لم تكن من قبل اما النفس فتنمو بالنسبة الى نوعية كيانها وحالته اي بالاختيار واعمال الروية في العلوم وانعام النظر في الفنون والتشمير عن ساعد الجد في تحصيل الفضائل والمثابرة عليها وما شاكل ذلك .

وعليه يظهر وجه نمو الجسد والنفس المتغاير منذ دروج الانسان الى آن احتضاره . ويتضح ايضاً وجه حمل كلمة هرم على النفس ان امكن حملها بالمجاز : فان الجسد اذا ما اتصل الى الكبر ضعفت فيه لا محالة قوة المخيلة والحاسة اللتان تصحبان افعال العقل وترافقانها ما اتحدت النفس بالجسد . ولما كان تجلي هاتين القوتين الى عالم الشهادة موكولاً الى الاعضاء لزم عن ضعف هذه الاعضاء ضعف المخيلة والحاسة

ثانياً . لا يذهب عنكم ايها السادة ان ما يبعث المرء على الرضى بمعرة المغالطات وعُرَدِ الوهميَّات هو ركوبه اهواءه والالمام بلحاء المسائل وظواهرها والتصوُّن عن التنقيب عن لبابها واسرارها ولاسيما اذا كان مدار المقال على الانسان القائم بالنفس والجسد المتخالفين ذاتاً والمتغايرين افعالاً والصادر عنهما كليهما اقنومية اي وحدة داخلية . فيتوهم من يرى ارتباطاً محكماً بين الاعضاء والعقل ان العقل قوة عضوية غير متبصر في ما اذا كان تصوره منافياً لذاتية الصفات الداخلية الممثلة بالافعال العقلية ضاحية جهاراً . ثم ان المخيلة التي تستعمل الدماغ عند تخيل الاشياء وتمثل المحسوسات يعروها آونةً اعياء وكلالة فيكون حينئذٍ الدماغ المتشوش نظامه والغير المحكمة علائقه مع القوى النفسية داعياً لتشوش الافعال العقلية . وعليه يكون تشوش الافعال العقلية وعدم سوقها مساقاً منتظماً عرضياً لا ذاتياً . فاذاً اذا طرأ على الحواس تشوش النظام العادي لا يلزم عنه مثله في العقل ذاتاً وتوًّا وانما يكون ذلك التشوش في المخيلة والحواس . الاَّ انهُ من كون استعمالها شريطة ضرورية لافعال النفس ما بقينا في العاجلة ينجم احياناً عن عطلة الحواس عطلة القوى النفسية

ثالثاً ما من احد ينكر كون العقل قوة للانسان من جهة الاقنومية ولكن لا يدور في خلد امرئ انه قوة للجسد فهو قوة لذلك الجزء الانساني غير الهيولي والدرجة الكمال التي لا اشتراك للجسد فيها لا للجزء الهيولي ولدرجة الكمال التي للجسد فيها اعظم اشتراك . فقولنا انسان يراد بهِ اقنوم قائم من نفس وجسد وعلى مطابق معنى لفظة انسان يصح

نسبة القوة المدركة اليه غير ان الانسان لا يقوم بشيء واحد فرد بل بشيئين المادة والنفس ومن هذه تصدر اربع قوى اثنتان متعلقتان بالاعضاء وهما الاحساس والنمو واخريان العقل والارادة تفوقان اهلية الاعضاء فلا تتعلقان بها فمركزهما في النفس العاقلة ليس الاّ . فاذاً قد طاشت سهامهم بما ماروا بهِ وضافت عن غرض الحقيقة. ولهم اعتراضات اخرى لا يؤبه لها ووهميات سخيفة تمجها الاسماع نابيةً عنها

ومما مرّ من الحجج الدامغة البالغة يتبين لاولي الالباب ان مذهب الروحيين هو المذهب الصحيح والحق الابلج الصريح وان جميع اقوال الماديين نزهات نزغتهم اليها تسويلات اهوائهم الناسدة وان هي الاّ خطرات غثة رثة وبدوات عاطلة من سند عقلي وحالية بكل وهم نقلي يثلم ما تتناصر على تقريره وتحقيقهِ اليقينيات ويغاير المعنويات والحسيات وان اتباع الراي الروحي هم الحكماء الاثبات الذين لا يجد ذو ادب وحجى مغمزاً في اقوالهم ولا مطعناً في نزعاتهم . هذا والتسبيح والتقديس لمن جلى بفيضه الرباني ومددهِ الروحاني عن بعض صفات ذاته الاحديه وحضرته الصمدانيةوحقيقتهِ الواحدية لاوليائه الاطهار الكرام وانصارهِ الاخيار الفخام اولي الفطنة الوقادة والبصيرة النقادة الذين جاءوا بغرر البراهين العقلية والنقلية ونفثت اقلامهم بالحجج الراجحة التي بها يحترز من شبهات المقالات وفندها وتدفع مضلات الاهواء وعُرَدُ الاراء السخيفة المرجوحة واوضحوا عن روحانيتهِ وبساطتهِ ونزاهتهِ عن علاقة الجسمية وأوهام المشبهة والحلولية وتهاويل المعطلة والبنانية الا وهو القائل في كتابهِ العزيز المبين لنخلق انساناً على صورتنا ومثالنا ذا نفس بسيطة وروحية. يلهمها تسبيحًا بحمدهِ بكرةً واصيلا ويوزعها شكرًا لما اسبغ من الآلاء واذلّ من النعماء ويستر بذيل مغفرتهِ عوارها ويقيل برحمته عثارها في مفتتح افعالها ومختتم اعمالها .

خطبة فائقة

(في العقل والوحي تنفيداً لمذهب العقليين)

لسيادة البحر العلامة والحبر النهامة المفضال المطران يوسف الدبس مؤسس هاته الدائرة ورئيسها ايده الله وسدد بالتوفيق مسعاه ونفعنا بفضله الشامل وعلمه الكامل قال :

« ايها السادة »

القى احد اعضاء هذه الدائرة في الحفلة السابقة خطبة دحض بها مذهب الماديين مبيناً بها مضاره الكبرى بالدين والهيئة الاجتماعية واشبه بهذا المذهب مذهب العقليين او البرهانيين بل قد يمتزج به في بعض المسائل فتمهد بالخطبة السالفة السبيل الى تفنيد مذهب العقليين الذي زعم اصحابه ان بالعقل الفردي وحده الكفاءة والاهلية لتدبر امر الدين والاداب ولا حاجة الى الوحي الرباني مع اننا نعلم بالاختبار اليومي ان عقلنا ضعيف جريح عرضة للتغير فلا يدرك ما كان غامضاً وباولى حجة ما يفوقه رتبة ونراه جريحاً بامياله فتحمله الشهوة على ما حظرته عليه الشريعة وتريه الغضب غير الواجب فرضاً والحرام حلالاً ويصوّب اليوم ما خطأه امس ويستحسن غداً ما استقبحه اليوم وليس ذلك مقصوراً على النظريات فقط بل يمتد الى العمليات اليومية ايضاً ولذلك تدارك الله عز وجل الانسان بايحائه اليه بعض حقائق لازمة له فتلافى بالوحي ضعف العقل وجرحه وتغيره فاستكبر الانسان وادعى ان لا حاجة له بالوحي بل يكفيه العقل وحده مؤنة التدبر بامر الدين والاداب فكان لمن قال بذلك ضلال كثير المضار بالدين والهيئة الاجتماعية فسوّلت لي همتي وان قاصرة ان افند هذا الضلال بخطبتي هذه مقسومة الى ثلاثة اقسام ابين في الاول منها ان العقل وحده لا يصلح ولا يمكن ان يكون قاعدة في امور الدين والاداب وفي الثاني ان الوحي ممكن ولازم وموجود فعلاً ويلزم الاعتماد عليه مع العقل وفي الثالث ان البرهانيين وكل الذين يدّعون انهم يتدبرون بامر الدين والاداب بمقتضى العقل يصعون خلافاً لارشاد العقل ايضاً فلا يكون لهم معتمد على العقل السليم ولا على الوحي الرباني بل هم على ضلال ولا يعلمون

القسم الاول

اني افترض قبل كل شيء اعتقادنا وجود واجب الوجود الذي هو الله وكونه مثيباً الاخيار ومعاقباً الاشرار بسعادة خالدة او عقاب مؤبد افترض هذا ليقيني اني لا اخطب في معطلة او معتزلة ينكرون وجود الله او عنايته او خلود النفس بل بمؤمنين يعتقدون كل ذلك وان قرا غيركم خطبتي وخامره ريب في الحقائق الاساسية التي ذكرتها فارجعه الى خطب عديدة القيت في دائرتنا وغيرها وطبعت فتسهل مراجعتها على ايّ كان

احط بعض العلماء قدر العقل حتى جعلوه قاصراً عن الوصول الى توكيد شيء وانصلوا الى الريب بكل حقيقة وهذا بطلانه ظاهر فلا نطيل الكلام برده وهو غير المقصود بكلامنا. وعظم غيرهم قدره حتى جعلوه يدرك كل شيء ويعتمد عليه في كل شيء حتى في امر الدين والاداب وهذا منفي من اوجه عديدة اكتفي بذكر بعضها

اولها ان الدين والاداب شريعة ملزمة فلا يمكن ان يكونا من مخترعات عقل كل واحد وكما انهُ لا يسوغ لكلٍ ان يسن لنفسه شريعة على هواه فكذا لا يمكنه ان يستنبط لنفسه شريعة الدين والاداب التي هي اس جميع الشرائع فكيف يمكن للعقل الضعيف المستحوذة عليه الانفعالات والشهوات والنفس الامارة بالسوء ان تسن لنفسها شريعة وتضع مبادئها في العمل وهي تنهاها عما تميل اليه طبعاً . لعمركم لو ساغ لكل منا ان يصنع لنفسه ديناً واداباً لما كان لكل منا الا دين واداب بحسب ايثاره ولم يكن لاحد منا دين او اداب تقهر امياله او تكبح شهواته وبالنتيجة لا يكون لنا دين واداب حقيقية هذا فضلاً عن الاختلاف الذي يكون في هذا الدين والاداب فانه يكون متعدداً تعدد الناس ومختلفاً اختلاف اميالهم وترى انهُ يندر او يكاد يستحيل وجود انسانين يتفق فيهما اتفاقاً كاملاً العقل والاميال فاذاً نفس تصور الدين وقواعد الاداب ينفي كونها اختراع كل واحد لنفسه ومن المبادئ ان ليس لاحد ان يكون قاضياً في دعواه فبالاولى الاّ يكون مشترعاً لنفسه والاّ لكان رئيساً ومرؤوساً معاً وهما نقيضان فالعقل اذاً يساعدنا وينيرنا في ادراك شريعة الدين والاداب والعمل بها لكنه ليس المشترع السامي لها

ثانيها انهُ من المبادئ البديهية التي لا ينكرها عاقل ان غير المالك لا يملك او يلتفظ

اخر لا احد يعطي ما لا يملك ومن البديهيات الثابتة بالاختبار اليومي ان العقل البشري متقلب ومتغير والحال ان قواعد الدين والاداب يلزم ان تكون ثابتة راسخة فاذاً لا يمكن ان يصدر عن المتقلب ما هو ثابت وعن المتغير ما هو راسخ وغير متغير اي لا يمكن الدين والاداب التي تقتضي طبعاً ان تكون ثابتة وراسخة ان يكون مصدرها العقل المتقلب المتغير . فكل من مقدمات هذا القياس لا يمكن التكذيب او الشك بها فهل يشك بكون غير المالك يملك فمن يطلب من النار ماء وهي لا تملكه فهذا اوضح من ان يبين او في كون العقل متغيراً ومتقلباً فهذا نراه بالاختبار في كل يوم بل في كل ساعة او بكون الدين والاداب تستلزم ذاتاً الثبوت والرسوخ والا فلا تكون قاعدة فالمقدمات ثابتة فلا مفر من النتيجة البديهية كمقدماتها

ثالثها ان الدين والاداب يلزم ان تكون عامة فلا تحتمل حكمة الباري ولا نظام العالم ان يكون لكل دين يدين بهِ على هواه ولا ان يكون لكل اداب يستسير بها على ماثوره بل لا بد من دين واحد صحيح واداب واحدة حقة لان ذلك حق والحق لا يتجزا ولا يتعدد مع الاختلاف فانبئوني اذاً سادتي كيف يمكن ان يكون الدين والاداب عامة اذا كان العقل البشري هو الذي يسن شريعتها فمن يجمع وكيف يجمع بين هذه الاديان والاداب الفردية ليتألف منها دين واداب عامة وكيف يمكن السذج والاميين وهم السواد الاعظم في العالم ان يصوغ كل منهم دينه وادابه فاذا كان المتمدن المتعلم بعض اللغات او المتحلي ببعض المعارف يمكنه ان يفترض لنفسه ديناً واداباً (هذا اذا سلمنا بذالك مجاراة مع انهُ منكر) فكيف يمكن من يسميه هذا المتمدن فلاحاً او امياً ان يصنع ذالك وهو يعسر عليه ان يفهم الدين والاداب مع شرحهما لهُ هذا وفي هذا المتمدن نفسه لم يثبت الدين ان كان عقله هو المنشئ لهُ فكل منا يعلم انه يكون لهُ افكار وهو شاب وافكار وهو كهل وافكار وهو شيخ يخالف بعضها بعضاً فعلى اي من هذه الافكار المعول في تدبر امر الدين والاداب او هل تريد ان يكون لنا دين في الشباب واخر ونحن كهول واخر ونحن شيوخ وان نسمي مع ذلك هذا الدين عاماً ثابتاً كما يلزم ان يكون الدين والاداب . هذا ومن البديهي ان شرائع الدين والاداب يلزم ان تكون ملزمة ومن فرض الالزام امكنه ان يحله ويبطله فكيف يمكن ان يسمى ديناً او قاعدة للاداب ما لا الزام لهُ الا من ارادتنا وهي كما عقدت يمكنها ان تحل واية سلطة لنا على غيرنا لنضع

عليه نير الدين والعمل بقواعد الاداب ان كان ذلك اختراع عقلنا وهو ذو عقل نظيرنا وله ما لنا من الحقوق والنتيجة ان ماهية العقل والدين والاداب نفسها وخواصها الجوهرية تدلنا ان ليس في العقل وحده الكناية للتدبر في امر الدين والاداب

رابعها اذا نظرنا في هذا الامر من جهة الاخبار في من تقدمنا ازددنا تاكيداً بعجز العقل عن ان يكون قاعدة راهنة للدين والاداب فاذا اجلتم نظركم في التاريخ منذ الصدر الاول للعالم حتى الان لم تجدوا البتة شعباً احتجبت عنه انوار الوحي وامكنه ان يهتدي بمجرد ارشاد العقل الى دين حق يليق بالله او الى مبادىء اداب حقة خالية من فظائع شنيعة وهذا مجمع عليه ليس له من نكير فقد طمت التواريخ والاثار المبينة له ونجتزي عن التطويل في اثباته بتذكرنا ان اكثر القبائل او كلها التي خلت عن الوحي اعتقدت كثرة الالهة وقد تغلبت عبادة الكواكب والنجوم عند اسلافنا الشرقيين من كلدان وفرس وفينيقيين ومصريين وقد كان اس دين اكثر الشرقيين ومبدا اللاهوت عندهم التعليم بمبدأين او الهين اله للخير واله للشر وما برح هذا المعتقد مستمراً في الهند والياپون وقد انصل المصريون ان يعبدوا بعض الحيوانات بل بعض الاعشاب النابتة في البساتين كالبصل والثوم حتى سخر بهم الشاعر اللاتيني بقوله ما ملخصه «قد حرم مضغ البصل والثوم» فيا لها من قبيلة مقدسة تنبت بساتينها مثل هذه الالهة . واذا ساغ لنا ان نرتاب بكون جميع الافراد اعتبروا خشب التماثيل وحجارها الهة فلا مندوحة لنا من الاقرار بكون العامة والسواد الاعظم في الوثنيين نزل التماثيل والاوثان منزلة الالهة ساجداً متعبداً لها وقد روى جرديل الشهير ان جيراننا سكان صور غللوا تمثال معبودهم بسلاسل لئلا يفر هارباً ومن المشهور قول اراسوس بهذا الشان في الوثن «كنت خشباً ملقى لا نفع له فنحتني النجار تمثالاً واحب ان اكون الهاً فانا الان اله» وقد ادى الرومان واليونان لابطالهم في حياتهم وبعد مماتهم العبادة المتوجبة للالهة فهذه اخص القبائل المتمدنة في تلك الاعصار وهذه منكرات معتقداتها لخلوها عن الوحي وقد زادت على ذلك نسبة الرذائل والفواحش لالهتها بل جعلت هولاء الالهة ارباباً ونصراء للمنكرات واصحابها كما صرح وكرر ذكر ذلك الشعراء الاقدمون لاسيما اوميروس اليوناني وفرجيل اللاتيني ولم تكن اداب من لم يشرق عليهم الوحي اصح واقوم من معتقداتهم فان طقوسهم الدينية نفسها وذبائحهم ومجتمعاتهم في هياكلهم عينها لم يكن يضحى فيها الدم

البشري البري فقط بل كان يضحى بها كل خجل وحياء في ارتكاب الفواحش حتى يمكن ان تسمى مهاة الارجاس والفظائع ويابى اللسان خجلاً التلفظ بما كانوا يتمرغون به ولا تمرغ الخنازير بالحماة ولكي اذكر اشياء ومحالاً قريبة منا مكانًا اقول لو تذكرتم ما كان يجرى في هيكل الزهراء في افقا عند منبع نهر ادونيس او تموز المعروف الان بنهر ابرهيم او ما كان يحدث في هيكل عستروث في صور من الفواحش المخجلة لاحمر وجه كل منا خجلا من مجرد رواية فظائع عبرت منذ قرون وكانت تلك الرذائل ترتكب تكرمة للالهة كانها فضيلة ومثل ذلك ذبح الاطفال وغيرهم من الناس تكرمة للالهة وسنعود الى هذا الموضوع في الكلام على ضرورة الوحي ونتج الان انه مهما يكن من قوة العقل فليس بهِ الكفاية لفرض قواعد الدين والاداب ولو مهما عظم العقليون ومنكرو الوحي قوة العقل فان الاختبار افادنا ان كل من احتجب عنه نور الوحي فردًا كان او شعبًا بربريًا كان او متمدنًا وجدناه قد تسكع في ديجور الجهل وعلم المستحيلات وركب الموبقات فاذًا لا بد من الوحي لجعل مبادىء الدين والاداب ملزمة وثابتة وعامة واذا لم تكن كذلك فلا يمكن ان تكون دينًا واٰدابًا حقيقية فلننظر الان ان كان هذا الوحي ممكنًا وضروريًا وموجودًا فعلاً

❊ القسم الثاني ❊

ان كون هذا الوحي ممكنًا هو امر بديهي ظاهر اذ لا منافاة فيه لا من جانبه تعالى ولا من جانب الناس ولا من جهة الحقائق بنفسها فاذا كان للانسان ان يكشف افكاره او حقائق لآخر فكيف لا يستطيع ذلك من هو على كل شيء قدير فهل تعوزه واسطة لذلك او ليس حكمته لا حد لها ولا نهاية والامر اوضح من ان يوضح . اما من جانب الانسان فلا مانع للوحي ايضًا فهو موهب طبعًا لفهم الحقائق التي تكشف له وهو بغريزته صالح للتعلم من افراد نوعه وغيرهم فما الذي يصده عن ان يفهم ويدرك ما يكشفه الله له توًا او بواسطة وهذا كالاول بوضوحه ومثلهما الثالث اي لا منافاة من قبل الحقائق بنفسها لانها اذا كانت عائدة لخير الانسان ونظام العمران ومجد الله وفوز الناس بسعادة فاي الموانع من ان تكون مادة لوحي الله ولو تضمنت اسرارًا تفوق الفهم البشري فان في الطبيعة

نفسها اسرارًا نعتقد بها دون ان ندرك كنهها وعلتها ويستطيع الله تعالى ان يعلمنا ما يفوق فهمنا لنعتقده فالوحي اذًا ممكن وهذا ظاهر فلا نتوقف فيه

ان الوحي ليس ممكنًا فقط بل كان لازمًا وضروريًا وكل ذي عقل سليم يرى لزومه من جانب الله وجانب الانسان وجانب الحقائق بنفسها فاما من جانبه عز وجل فلان جوده وعدله وحكمته تقضي عليه من حيث انه خلق الانسان محتاجًا الى الهداية وعرضة لارتكاب الشر كما كان قبل جريمة آدم وجانحًا اليها كما صار بعدها ان يسعفه بوحي يوقف الانسان على ارادته سبحانه ويقوم مسيره واعماله الى الغاية التي افترضها له ويفقهه كيف يتدبر بنوع يليق بالخالق القدوس والعادل والا فيكون عمله تعالى ناقصًا اذ يوجد الانسان محتاجًا الى الرشد ولا يرشده كيف يستسير او يتركه وشانه مع علمه بسوء حاله وهذا ينافي صفاته القدسية المشار اليها وهي جوهرية فيه تعالى فكيف يكون جوادًا ويبخل على من خلقه على صورته ومثاله بالارشاد له ليستسير كما يجب او كيف يكون عادلاً اذا لم يكشف عن شريعته بنوع عام وثابت ليمكنه ان يعاقب المسيء او يثيب المحسن فهل اظلم من ملك يعاقب اناسًا لمخالفة ارادته وهو لم يبينها بل ترك كلاً وعقله ليتصور ما شاء ويفعل ما تصور وبدا له وكيف يكون حكيمًا لو ترك رعيته دون ضابط او قاعدة يفترضها ليقوم مسودة اعمالهم على موجبها بل ترك كلاً وشانه مع معرفته باختلاف مفهومهم واميالهم فاذًا صفاته تعالى الجوهرية التي هي نفس ذاته القدسية تقضي عليه ان يوحي ارادته ولا يكتفي بشريعة يسنها عقل كل من الافراد لما ابناه من عدم كفاية العقل لنقصه وتغيره وعدم استوائه في الجميع ولعدم السلطة لاحد على الاخر طبعًا فاذًا الوحي كان لازمًا من جانب الله

وان كان لازمًا من جانب الله فهو من جانب الانسان اضر والزم ففطرة الانسان نفسها تستلزم وجود قاعدة مصدرها اعلى من نوعه تقيد اعماله وتدبرها ويلزم ان تكون هذه القاعدة واحدة وعامة والا فلا تكون قاعدة بل يكون كل يفعل ما يشاء دون ضابط وان تكون سلطته اعلى من الانسان تحافظ على هذه القاعدة وتوطدها بفرض عقاب او ثواب على من يخالفها او يعمل بها والا فلا تكون ضابطًا ثابتًا او وازعًا فعالاً لاعمال الناس والحال ان عقل الانسان عاجز بنفسه عن وضع قاعدة مثل هذه فاذًا الوحي لازم من جانب الانسان كل اللزوم

فكبرى هذا القياس وهي لزوم قاعدة لدين الانسان وادابه بديهية لا منكر لها ومنكرو الوحي يعترفون لزومها لكنهم يقولون ان قيامها بالعقل وقد برهنا قبلاً الصغرى وهي ان عقل الانسان قاصر عن وضع مثل هذه القاعدة ونزيدها الان برهاناً مستندين خاصة الى الاخبار فانه اقوى من الاعتبارات النظرية فاذا اجلنا افكارنا في ما هو مشهور في التواريخ ولا ينكره احد وجدنا انه كان للمصريين كهنة حكماء وللهنود علماء ماهرون وللفرس مجوس متبحرون ولليونان وللرومان فلاسفة وحكماء طارت شهرتهم في الخافقين وجميع هولاء اجهدوا نفوسهم بتاليف كتب وانشاء مدارس واقامة منتديات علمية الخ ومع هذا كله عجزوا عن وضع قاعدة ثابتة وعامة لشعوبهم في امر الدين والاداب ومنعهم من ذلك انتقاص الوحدة والمرجع المقررة من الجميع والسلطة الجازية من يخالف تلك القاعدة او يعمل بها اما نقص الوحدة فلان اولئك الفلاسفة والحكماء ومن اتبعهم كان كل منهم يخالف الاخر في قاعدة الدين والاداب وما كان يثبته فريق كان ينقضه الفريق الاخر وكان التلامذة يخالفون غالبًا الاساتذة ولم يكن لتعليمهم مرجع واحد يقرّره الجميع كما هو الوحي فهذا المرجع او الاساس عندهم كان العقل وكل منهم كان يدعيه محاميًا له فعجزوا لانتقاص هذه الوحدة والمرجع عن اقناع الشعب بقاعدة راهنة للدين والاداب

اما انتقاص السلطة فلانه لم يكن لاحدهم سلطة شخصية او طبيعية على الاخر ولا على الشعوب والسلطة العلمية او بالاولى الاعتبار العلمي كل ما كان يجدي عليهم انما هو الاصغاء لكلامهم والتشيع لهم لا مقاومة الشعوب اميالهم ولا كبح شهواتها ولا العدول عن ارباحها او مغادرة عاداتها الادبية والدينية . فضلاً عن ان اولئك الفلاسفة كان يلزمهم مطاوعة الشعب بعاداته ومعتقداته لئلا ترذلهم العامة فسقراط نفسه الذي يعتبر شهيد التعليم وحدانية الاله اضطر مرات ان يقدم الضحايا لالهة الوطن كما شهد السنوفون محاميه ومترجم حياته (في كتابه في اعمال سقراط واقواله) هذا وان سلطة الفلاسفة واعتبارهم لم تكن تمكنهم من عقاب من يخالف اقوالهم او ثواب من يعمل بها لتكون تعاليمهم هذه القاعدة الملازمة للدين والاداب فما تصنع المقالات النصيحة البليغة في مدح الفضيلة او ذم الرذيلة اذا لم تكن سلطة تعاقب او تثيب

على ان اكبر الفلاسفة انفسهم جهلوا حقائق كثيرة وعلموا خرافات عديدة مثلاً

سقراط علم ان الله غير ممتاز عن هذا العالم وامر عند موته ان يضحي بديك كمل عند لاسكولابيوس وافلاطون وقد سمي الالهي جعل الله بمنزلة نفس للعالم واعتقد التناسخ واباح قتل الاولاد القبيحي المنظر وارسطو علم بكون المادة ازلية وارتاب بخلود النفس وبيثاغورس اوجب عبادة النجوم ودافع عن التناسخ وهلمّ جرّا في باقي الفلاسفة حتى قال شيشرون انهُ لا يوجد راي ولو مهما كان مستحيلاً الاّ واعجب بعض الفلاسفة فان كانت هذه حال الفلاسفة فما تكون حال العامة فاذاً العقل وحدهُ عاجز عن وضع القاعدة اللازمة للدين والاداب والحال ان هذه القاعدة لابد منها فاذاً لابد من الوحي ولا يستطيع العقليون او الطبيعيون الذين ينكرون الوحي في ايامنا ان يصنعوا ما عجز عن صنعه الفلاسفة والحكماء القدماء ونتيجتنا الاخيرة ان الوحي لازم وضروري من جهة الانسان فضلاً عن لزومه من جانب الله

ان هذا الوحي ضروري ايضاً من جهة الحقائق نفسها التي يستند اليها الدين والاداب ولا يكفي في ذلك العقل وحده وهاك البرهان ان العقل نفسه يهدينا الى وجود علة سامية ابدعت العالم وما فيه وان هذه العلة او الخالق لابد من تكريمه والتعبد لهُ بعبادة ما ونفسنا عينها تشعر بتوق الى سعادة دائمة وتحب طبعاً هذه السعادة وتميل الى الخلود والتابيد كما نرى ذلك بيناً في كل ما تصنعهُ ليبقى بعدها حفظاً لذكرها كولادة البنين وترك الاثار الحسنة من مشروعات مهمة او تاليف تستحق الاعتبار او بنايات او امتياز بفضائل الخ فهذه الامور السامية لابد لها من حقائق وقواعد يستنار بموجبها بامن وثقة بان ما يصنعه الانسان يرضي الخالق ويبلغ الى السعادة التي جعلها حدّاً موبداً للانسان لانه كيف يمكن العقل ان يعلم بامن اية عبادة ترضي الخالق واتها يسخطه واي عمل يبلغ الى السعادة وايها يبعد الانسان عنها وكيف يحصل الاتفاق على حقائق كهذه بل كيف يمكن ادراكها بمجرد العقل الضعيف المتغير فاذا تعلق هذه الحقائق الدينية والادبية بالخالق الذي هو اعلى من الطبيعة وانتسابها الى سعادة خالدة اعلى من الطبيعة ولو كان في الطبيعة الميل اليها تستلزم ارشاداً اعلى من الطبيعة وهو الوحي فاذاً الوحي ضروري من كل جهة

ان هذا الوحي الضروري موجود فعلاً والاله الجواد بنوع الكمال لم يترك عمله ناقصاً ولم يدع خلائقه تحتاج شيئاً ضرورياً بل قدمن بهذا الوحي الممكن والضروري

من كل جهة وهو الكتاب المقدس الحاوي اسفار العهدين القديم والجديد فنقول خصوصاً من اين نعلم ان هذه الكتب حقيقية او ليست مزورة او مخترعة من اناس مكارين او اصحاب مآرب ومن يضمن لنا كونها وحي الله حقيقة فنجيبهم على هذه جميعها

اولاً ان العهد القديم باسفاره لم يكن ممكناً ان يكون مخترعاً او مزوراً او ان يدخله تصحيف او تحريف يغير جوهره فان الله سمح ان يكون في العهدين انقسامات واختلافات وعرف بحكمته ان يصدر من الشر خيراً فقد كان في العهد القديم انقسامات بين السمرة واليهود وبين اليهود انفسهم انقسامات الى فريسيين وزنادقة وغيرهم فضلاً عن الانقسام الذي كان بين النصارى واليهود منذ ايام المخلص فان كنا نحن النصارى اختلقنا او زورنا او حرفنا اسفار العهد القديم فكيف امكن ادخال هذا التزوير او التحريف عند اليهود ايضاً وكيف امكن بقاء الكتب التي في يدهم والتي في يدنا على المطابقة التامة الا في بعض اختلافات القرآت وفي اعتبار بعض اسفار كونها قانونية او لا وكذا لو كانوا هم اخترعوا او زوروا هذه الاسفار فكيف امكن لنا اخذها عنهم وبقاؤها عندنا الى الان ثم ان السمرة لم يكونوا يشتركون مع اليهود بل كان بينهم بغض وضغينة مستمران والحال ان بعض اسفار العهد العتيق هي عند الطرفين على طباق تام الا في بعض كلمات فلو زوّر السمرة تلك الاسفار لصاح بهم اليهود او لو زورها اليهود لصاح بهم السمرة فاتفاق الضدين او المتضادين على هذه الاسفار مدة هذه الاعصار العديدة بين يهود وسمرة ويهود ونصارى هو دليل قاطع على كون هذه الاسفار غير مخترعة او مزورة

ثم في العهد الجديد قد سمح الله ان يكون بين النصارى انفسهم انقسامات واختلافات منذ القرن الاول الى هذا القرن فقد كان في القرن الاول تباع سيمون الساحر وكيرنتوس وابيون والنيقيلاون وغيرهم وفي القرن الثاني كربوكرات ووالنتينوس وايفان ومونتانوس وغيرهم وفي الثالث تباع سابيتوس وبولس السميساطي وماني وغيرهم وفي الرابع الدوناتيون والاريوسيون والمكدونيون وغيرهم وفي الخامس البيلاجيون والنساطرة والاوطاخيون وغيرهم وفي السادس اليعاقبة والتلاثيون وغيرهم وفي السابع اصحاب المشيئة الواحدة وغيرهم وفي الثامن محاربو الايقونات وهلمّ جرّاً الى اليوم فوجود هذا الانقسام ساعد كثيراً على اثبات الاسفار المقدسة من وجهين الاول

انه لما كان الكاثوليكيون يعترضون خصومهم ويحجونهم بآيات هذه الاسفار لم يقل الخصوم قط بكونها مزورة او غير صحيحة او لم يكتبها رسل المسيح وتلامذته والثاني ان الفرق المتضادة حفظت الاسفار المقدسة وهي عند جميعها واحدة فلو كانت مزورة او محرفة لما قبلها فريق من الاخر مع الخصام بينهم وقد بقي من هولاء الى اليوم النساطرة واليعاقبة والبراصمة وغيرهم وها كتبهم المقدسة وبينها وبين كتبنا المطابقة التامة

ثم لو كانت اسفار العهد الجديد مزورة او محرفة لكان هذا التزوير والتحريف اما قبل موت الرسل واما بعده والامران منقوضان فلا قبل موت الرسل لانه من كان يجسر ان يزور انجيلا او رسالة باسم رسول او مبشر في ايامه ونصب عينيه وكيف يسكت هو على ذلك او يحتمل ان ينشر احد باسمه تعليمًا مخالفًا لتعليمه وكيف يخفي ذلك عليه ولو خفي عليه كيف يخفى على تلامذته والمرء على ما يُقرأُ ويعلم ويعلم ويعمل به في كل يوم ولا يمكن ايجاد هذا التزوير او التحريف بعد موت الرسل والمبشرين لانه كيف يمكن مثلاً اهل رومية وغلاطية وقرنثية وغيرها ان يصدقوا ان مار بولس كتب اليهم رسائل وهي لم تبلغ اليهم في ايامه وكيف يمكن ان يقرأُوا هذه الرسائل خلوة او جهارًا متفاخرين بكون الرسول كتبها اليهم مع انهم لم يتلقوها منه ولا سمعوا شيئًا عنها . ثم ان الناس في كل عصر لا يموتون سوية بل يبقى في العصر التابع اناس عاشوا في العصر السابق فالقرن الثاني مثلاً كان فيه اناس شبوا في القرن الاول والقرن الثالث حوى اناسًا شبوا في القرن الثاني وهلمَّ جرًّا فلو فرضنا هذا التزوير او التحريف وقع في القرن الثاني لصاح باصحابه من كانوا في القرن الاول اننا لم نسمع شيئًا من هذا او سمعنا ما يخالفه فلا يمكن اذًا ادخال اسفار مهمة تقرأ في كل يوم وتتعلق بامر الدين والاداب او ادخال تحريف جوهري فيها وان تقبله كل الفرق على اختلافها وتضادها ولاسيما ان نسخ هذه الاسفار المقدسة انتشرت منذ عهد كاتبيها في الآفاق وكتبت وترجمت الى لغات عديدة فلا يمكن تواطيء الممالك الشاسعة على تزويرها او تحريفها بنوع واحد ونزيد ذلك ايضاحًا بقولنا مثلاً نحن النصارى في بيروت مؤلفون من عدة طوائف او فرق اي لاتين وموارنة وروم غير متحدين ومتحدين وارمن وسريان وابروتسطنت فكيف يمكن فرقة منا ان تدخل سفرًا مقدسًا ولا يصيح بها سائر الفرق وان ادخلته عندها فكيف تدخله عند غيرها وقد كان النصارى دائمًا كما نراهم الان منقسمين

الى فرق

هذا وان هذا التزوير لا يخلو من ان يكون اوجده اليهود او الوثنيون او النصارى والحال ان اليهود لا يمكنهم ذلك لمضادة النصارى لهم ولاحتواء هذه الاسفار حتى الان ما يضادهم صراحة فلو زوروها هم فليس اقل من ان يسقطوا منها ما يخالف زعمهم ولا يمكن ان يكون الوثنيون زوروها لانها تحوي ما يلاشي الوثنية ويضادها على خط مستقيم كالتعليم باله واحد وما اشبه ولو صنعوا ذلك فلا اقل من ان يكونوا اسقطوا منها ما يخالف زعمهم ولا يمكن ان يكون النصارى اقدموا على هذا التزوير او التحريف لان هولاء فرق مختلفة يضاد بعضها بعضاً وقد وجدوا كذلك في كل عصر فضلاً عن الاختلاف بينهم وبين اليهود فاىّهم زور او حرف احتج عليه الفريق الاخر وقاومه والحال ان هذه الكتب باقية عند الجميع على المطابقة فاذاً ليست مخترعة او مزورة او محرفة

هذا وان من ينكرون هذه الاسفار او يقولون باختراعها لا يمكنهم ان ياتوا ببينة ناطقة باسم من اقدم على هذا التزوير او بذكر الوقت الذي جرى فيه فايّا نصدق هل من ياتي بما اتينا به من البينات الراهنة الدامغة والتي لا سبيل الى انكارها او من قال هذه الاسفار مزورة دون بينة او تعيين من زور او ابن زور او متى زور

واما ما يثبت كون هذه الاسفار موحاة او ملهمة من الله فيجب ان لا بد من شهادة الهية لاثبات كون ما كتب بهذه الاسفار وحياً الهيًّا ويلزم ان تكون هذه الشهادة مما لا يقدر البشر ولا الطبيعة نفسها ان تاتي بمثلها بل يفوق قواها اجمع وتقوم هذه الشهادة بنوعين المعجزات وحدوث ما فيه نقض لشرائع الطبيعة او ما تعجز عنه الطبيعة والبشر عجزًا بينًا والنبوات وهي الانباء بحدث امر مستقبل بعيد لا يمكن مدارك العقل البشري التوصل اليه فكل مرسل او كاتب ايد الله رسالته او ما كتبه بمعجزة او نبوة حقيقيتين مخالفتين لنظام الطبيعة وفائقتين قوة البشر ومداركهم تحقق ان رسالته من الله وان ما علمه وكتبه انما هو وحي الله وهذا مما لا سبيل لانكاره لان المعجزات والنبوات من حيث انها تفوق قوة الطبيعة والبشر ومداركهم فلا يمكن ان تكون الا شهادة من الله وتعالى سبحانه عن ان يشهد للكذب وما دامت المعجزة او النبوة يمكن التوصل اليها بقوة الطبيعة او بمدارك الناس فلا نعتبرها معجزة ونبوة

والحال ان الاسفار المقدسة التي اثبتنا سلامتها من كل تزوير وتحريف هي طامية بذكر المعجزات والنبوات الحقيقة فعلينا اثبات هذه الصغرى كي لا يبقى مفرٌّ من النتيجة فنقول بالايجاز في هذه المادة الوسيعة ان المعجزات والنبوات في اسفار العهدين كثيرة مثل ضربات مصر واجراء ماء من صخرة واقامة اموات وابراء امراض واسقام بمجرد كلمة الامر ورد البصر على عميان وانطاق بكم واشفاء مخلعين الى غير ذلك مما لا يجهله كل من طالع الاسفار المقدسة وكذا النبوات في العهد القديم لاسيما ما لاحظ منها النادي والامه وصلبه وموته وقيامته وفي العهد الجديد نبوات المخلص على موته وقيامته وخراب الهيكل وتشتيت شمل اليهود ورؤى يوحنا الرسول الى غير ذلك .

فتاريخ هذه المعجزات والنبوات كتبه اناس عاصروا الحوادث وقبلته الاجيال والاعصار واجمعت عليه الفرق المختلفة المتباغضة واما معجزات العهد الجديد ونبواته فقد دوّنها اناس شهدوها وحرروها في نفس المحال التي حدثت بها وكانت روايتها تشجب كثيرين ولاةً ومسودين وتثبت الظلم على كثيرين وكان الكاتبون ضعفاء ساذجون لاسند لهم الا الحق وايد روايتهم كثير من خصومهم وخصوم المسيح واحتملوا انواع العذاب المبرّح حتى القتل اثباتًا لروايتهم وغيرّ ما رواه هولاء السذج وجه الارض وقتل ملايين من الناس حبًا بصدقه ومن صدّقوه انقسموا من بادي بدءهم الى فرق كثيرة متضادة ولم يضاد احدهم الاخر بهذه النبوات والمعجزات البتة هذا وان من كتبوا هذه الامور لم يكن ممكنًا لهم ان يغشوا ولم يريدوا ان يغشوا ولو ارادوه لما قدروا فلم يكن ممكنًا ان يغشوا لانهم راوا المسيح مجترحًا هذه الايات مراى العين او نقلاً عن ثقات كثيرين تلقوها منهم باثر صنعها ولم يريدوا ان يغشوا غيرهم لانهم كانوا سذجًا وعانوا لذلك آلامًا وعذابات بل الموت ايضًا ولم يكن ذلك ليكسبهم من جانب الله الا الاثم ومن جانب البشر الاّ الضر والعذاب . بل لو ارادوا ان يغشوا لما استطاعوا لانهم دوّنوا ما صنع امام جموع غفيرة وفي المحلات نفسها التي صنعت فيها المعجزات او قيلت النبوات وامام من شهدوها وهم حساد ومبغضون وامام من صنعت بهم مع تعيين اسمائهم ومحلاتهم ومع كونهم احياءً كثيرين مثل الالاف التي أُشبعت بالخبزات الخمس ومثل الذين راوا كسوف الشمس واستيلاء الظلام على الارض يوم صلب المخلص فكيف يمكن مثل هولاء ان يغشوا ولو تعمدوا المكر والخديعة

وكذا قل في النبوات على المخلص وصلبه وقيامته مما ورد في العهد القديم كأنه مفصل بل كأنه تاريخ حوادث ماضية ولاسيما نبوات اشعيا وداود على الام المخلص وقيامته الى غير ذلك مما رواه انبياء العهد القديم من اقدم الايام مع انه لم يكن انسان ولو مهما تعاظم حذقه يستطيع ان ينبئ بذلك قبل الوف او مئات من السنين ثم تاتي الحوادث مصداقاً لما انبا بهِ وكذا نبوات العهد الجديد المتعلقة بالام المخلص وقيامته وانتشار تعليمه الى اقصى الارض وخراب الهيكل وتشتيت اليهود فانه لم يكن ممكن عرفانها بمجرد الذكاء او الحذق البشري لاسيما ان المسيح كان يصنع ما يستوجب عرفان الجميل والمدحة وكان يحفظ شريعة موسى ويامر بحفظها ويصنع العجائب رحمة للناس كشفاء مرضاهم واقامة موتاهم وسد اعوازهم وهلم جرًّا وقد فاه بنبوتهِ عند دخولهِ اورشليم بالتسبيح والتهليل فعلى اي قلب بشري كان يخطر انه يحل به ما تنبأ به عليه وكذا نبوته على انتشار تعليمه في الارض كلها مع علمه ان دعاته اثنا عشر صياداً يضادهم ملوك الارض وشعوبها حتى الشعب اليهودي وكذا نبوته على خراب الهيكل مع انه كان مزداناً بالهدايا والنذور من اليهود وغيرهم ومع كونه قد مر على اليهود الوف من السنين وما تشتت شملهم التشتيت الذي تنبا عليه فاذاً رسالة المسيح ثابتة بالمعجزات والنبوات وكل ما علمه مما كتبه انصاره الذين جرى على يدهم مثل معجزاته هو وحي الهي وقد استشهد المسيح وانصاره دفعات لاتحصى باسفار العهد القديم واثبتوا انها وحي وكلام الله فضلاً عما مر معنا من الاثبات فاذاً كل ما حونه هذه الاسفار هو وحي الهي لا مرية في صدقه ويلزم الاعتماد عليه .

فقد ثبت اذا ايها السادة ان الوحي ممكن بل ضروري بل موجود فعلاً وهو كلام الله لنا لا لنسمعه ونعلمه ونقربه فقط بل لنعمل بهِ ايضاً وهو نور وارشاد لعقلنا كي لا نضل كما ضل كل من احتقر الوحي وادّعى ان بالعقل وحده الكفاية لتدبر الدين والاداب ومع هذا نريد ان نسلم مجاراة لمثل هولاء بان العقل وحده كافٍ لذلك ونرى اذا كانوا يستسيرون هم حقيقة بنور العقل نفسه نظريًا وعمليًا

القسم الثالث

اولاً نسال من ينكرون الوحي ويدعون ان بالعقل وحده كفاية للتدبر بامر الدين والاداب هل دعواهم هذه تطابق العقل وهل باعتمادهم عليها يستسيرون بحكم عقل

صحيح فهم لا مناص لهم من ان يشعروا شعورًا بينًا كباقي الناس بان العقل ضعيف متغير ومتقلب حتى في المسائل العادية ولو شحذته الفلسفة وحاز صاحبه من التمدن غايته ويعلمون حق العلم ان الدين والاداب امور خطيرة مربكة ضل فيها اكابر الفلاسفة ولم يمكنهم الى اليوم الاجماع على مبادىء امور دون الوحي تكفل بمقاومة الاميال والانفعالات وتستلزم الثبوت دائمًا في كل عصر على طريقة واحدة ولا غنى عنها لفرد من الناس رجلاً كان او امراة كبيرًا او صغيرًا اميا او عالمًا فهل مع كل هذا يرون ان دعواهم هذه بكفاية العقل الضعيف المتغير لهذه الامور السامية وعدم لزوم الوحي فيها هي معقولة وصوابية وهل يبيحهم عقلهم الاعتماد على هذه الدعوى الواهية الباطلة في امرهو اهم الامور يتعلق عليه العمران وراحة الناس في العاجلة وغايتهم في الاجلة فان خلوا الى نفوسهم منصفين ايقنوا ان نفس دعواهم هذه لا يقبلها العقل وهم بالنتيجة مخالفون الوحي والعقل معًا ومتسيسرون على غير هداية من احدهما

ليت من انصلوا الى انكار الوحي واوجبوا الاعتماد على العقل وحده خالفوا ارشاد العقل بهذه الدعوى الباطلة وحدها كلا بل ان هولآ باي اسم تسموا طبعيين او عقليين او ماسونيين او دايست قد انصلوا بعمومهم الى انكار حقائق مهمة يعلمها العقل وهي ركن العمران ونظام العالم ومستقبل الانسان ونستشهد لهذا الشان ما فاه به حبر الاحبار البابا لاون الثالث عشر في رسالته العامة الاخيرة الصادرة في ٢ نيسان من هذ العام في حق من ينكرون الوحي فقال ونعم القائل « على ان الطبيعيين لا يقفون عند هذا الحد بل انهم بجراتهم ادخلوا نفوسهم في طريق يكتنفها الضلال من كل جهة بالنسبة الى حقائق ذات اهمية كبرى وتهافتوا الى اعمق الاضاليل واقصاها وذلك اما بسبب وهن الطبع الانساني واما بقضآ الله العادل الذي يعاقب كبرياء المتكبرين فكان من ذلك انه لم يبق عندهم ثبوت ولا توكيد للحقائق التي يدركها نور العقل الطبيعي نفسه كوجود الله وروحانية النفس البشرية وخلودها . . . لانهم وان اقروا بالاجمال بوجود الله فليس ذلك راسخًا في نفس كل منهم باعتقاد ثابت وتصديق وثيق كما يشهدون هم على انفسهم . . . ولكنهم يذهبون في هذا مذاهب فاسدة على مثال الحلوليين مما ليس في الحقيقة الا افساد لتصور الطبيعة الالهية والغآئها ومتى انتقض هذا الاساس العظيم او تزعزع تزعزعت ايضًا بطريق اللزوم تلك الحقائق المرشدة اليها الطبيعة كوجود

جميع الاشياء بارادة الله الخالق الحرة وتدبير العالم بالعناية الالهية وخلود النفس ووجود حياة للانسان خالدة بعد هذه الحياة الفانية واذا سقطت هذه الحقائق التي هي بمنزلة مبادىء طبيعية للعلم والعمل فتامل ترَ بسهولة ما تصير اليه الخصال والاداب الخاصة والعامة على اننا لا نتكلم في الفضائل الفائقة الطبيعة التي لا يمكن احد ان يباشرها او يدركها دون نعمة او هبة من الله والتي لا يمكن ان يكون لها اثر في من تجبره مكابرته الى انكار سر فدآ الجنس البشري والنعمة السموية والاسرار والفوز بالسعادة في السماء فنقصر كلامنا على الواجبات الصادرة عن الاداب الطبيعية نفسها فان الاعتراف بالله خالق العالم ومدبره والشريعة الازلية الآمرة برعاية النظام الطبيعي والناهية عن تشويشه وغاية الانسان القصوى التي هي اسمى من الاشياء الارضية طرًّا وخارجة عن دائرة هذا العالم فهذه انما هي الينابيع والمبادىء لكل عدل وادب فاذا سقطت هذه المبادى كما يفعل الطبيعيون والماسونيون فيسقط للحال اساس كل ادب طبيعي ولا يبقى مطلقًا للعلم المميز بين العدل والجور قوام ولا ظهير يتعزز به» انتهى كلام الحبر الاعظم

فوجود الله جل وعلا لا يدركه العقل فقط بل لا يمكن لعقل سليم ان يتعامى عنه اذا تامل باقل شيء من نفسه او من كلما حوله في الجهات الست ومع هذا اتصل كثير ممن انكروا الوحي الى ان انكروا وجود واجب الوجود ايضًا ومن لم ينكره منهم جعله كما احب وحسن له لا كما تقتضيه ذاته تعالى السامية فاراد ذلك الانسان ووافق مرغوبانه ان يكون تعالى لا عناية له بالعالم ولا بالناس لارشادهم بوحي وان لا يكون منحطًا الى مجازاة الناس عما يفعلون ولا مباليًا بتعبدهم له او عدمه فاعتقد الله كذلك فوجب على الله ان يكون كما تصوره والعياذ بالله وعاد يدعي علينا انه يستند الى نور العقل فانعم بظلام بدلاً من النور

ان العقل نفسه يرشدنا الى انه هو قوة نفس بسيطة تخالف خواصها الجوهرية او ذاتها خواص المادة وذاتها على خط الاستقامة بل مهما جد العقل ليوفق بين خواص المادة وخواص الافتكار مثلاً فلا يستطيع الى ذلك سبيلاً لانه يرى المادة متجزئة ذات ابعاد مجردة عن الحركة والسكوت والافتكار يخالف ذلك ذاتًا ولا تحمل عليه هذه الخواص البتة بل تنافيه ومع هذا يزعم اكثر منكري الوحي ان نفسهم مادية لا فارق بينها وبين المادة ويكذبون عقلهم الذي يشهد شهادة لا يمكن تاولها انه ليس مادة ولا قوة للمادة

اذ لا تملك مثل هذه القوة ولا يمكنها ان تملكها ولو جد كل الطبيعيين في الاجيال والاعصار كلها في الامتحانات ليجعلوا المادة تبدي اقل فكراو تعقل ومع هذا كله يزعمون ان العقل مرشدهم وانهم يستنيرون بهدايته ولا حاجة لهم الى الوحي

ان العقل ايضاً ومشاعر النفس عينها تنبئ انه لا بد من حياة اخرى غير الحاضرة ينال فيها من احسن مسعاه الثواب ومن اساء العقاب وهذا التصور يراه العقل ملازماً له ولا يمكن ابعاده عنه بل ترى الانسان يصنع بموجب هذا التصور الملازم كل ما يصنعه ليبقى بعده وكل ما يؤثره ليخلد ذكره فضلاً عن كون العقل يقضي بذلك بمجرد حكمه بوجود الله عادل وحكيم ومعرفته بانه اذا لم يكن الاله كذلك فلا يكون الهاً ومع هذا ترى من انكروا الوحي وادعوا الاعتماد على العقل ينكرون كل حياة بعد الحيوة الحاضرة وكل عقاب وثواب للاساءة او الاحسان عملاً ومن بقي منهم يقول بالحياة الاخرى وبالثواب والعقاب فيضعف هذا الاعتقاد به حتى تمسي هذه العقائد الاساسية عنده من جملة الاحتمالات فقط فلا تفعل به شيئاً فيهمل كل ما يترتب على ذلك واذا كان بطبعه ممن يميلون الى احدى الرذائل ايتها كانت او الى كثير منها اعتكف على شهواته ومرغوباته دون التفات الى هذا المعتقد الذي يتناساه رويداً رويداً كانه لم يكن . وان كان طبعاً ممن يكرهون الشر والملاذ اعتراه فتور فتال لكل فضيلة وعبادة واصبح معتزلاً عن ذكر الاخرة فهذه حالة من يتفاخرون بتمدنهم و بعدم تصديقهم الوحي و باعتمادهم على ارشاد العقل فقط

تلطفوا واسمعوا برهاناً اخر ان العقل نفسه يوجب معرفة الجميل والشكر على الاحسان وشيئاً من التكريم لمن يلون امورنا او يقومون بنا وهذا لا يشذ عليه احد نكير فمن ينكرون الوحي و يعتمدون العقل ولو تفطنوا بانهم اصحاب انسانية لا يغمطون النعمة ولا ينكرون المعروف المصطنع اليهم ولو تفاخروا ايضاً بالحرص على واجبات الانسانية وذم من لم يعمل بها فمع هذا كله تراهم يعتريهم شلل عام عن كل حركة عبادة لله او شكر لاحساناته الطامية او صلاته لنوال ما يبتغون او شكراً عما ينالون هذا مع اعتقاد كثير منهم بالله وعنايته ومع دعواهم الاستمساك بعروة العقل فكيف يتفق هذا وذاك

وقد كان لي برهانات اخرى على هذا النمط اقتصرت عنها تفادياً من مللكم واكتفي باستلفاتكم انه يعرض لكثيرين ان يصابوا بهذا الداء ولا يعرفونه بنفوسهم ولا يعرفه

غيرهم فيهم الا من مفعولاته فبعضهم تستحوز عليهم شهواتهم او رغائبهم المنكرة اينما كانت فيتناسون الوحي وارشاد العقل معًا دون ان يصرحوا لنفسهم او غيرهم ان هذا معتقدهم وربما اذا رددوا فكرهم او سئلوا انكروا انهم يذهبون مثل هذا المذهب مع وجود جرثومته فيهم وهم لا يحزنون وبعضهم لا يعكفون على رغائب محظورة ولكن انشغالهم بامور العلم وفتورهم بما تقتضيه نفسهم يسوقانهم وهم لا يعلمون الى هذا المذهب في جانب العمل والفريقان يسيران بهذا الضلال سيرًا عمليًا وهذا اكثر شرًا من الراي النظري ومصدر ذلك عدم استشارة العقل وعدم الاكتراث بالوحي

وبقي لي في الخاتمة برهان وجيز هو انه من مبادي العقل البديهية انه متى وجد طريقتان لعمل مهم لزم السلوك بما كان اكثر امنًا (هذا لكي اسلم مجاراة بان طريقة الوحي وطريقة الاستشارة بالعقل وحده هما في حالة الاحتمال فقط بعد كل ما اوردته من البراهين القاطعة على لزوم الوحي وعدم الكفاية في العقل لتدبر امر الدين والاداب) فللدين وللاداب طريقتان اتباع ارشاد العقل الضعيف مجردًا عن الوحي واتباع ارشاد الوحي مع العقل فالسالك في الطريقة الاولى ان صح لزوم الثانية لم يكن آمنًا في سلوكه على غير هدى وكان متعرضًا للضلال وللاخلال بالدين والاداب وما ادراك ما يتفرع عنهما واما السالك بالطريقة الثانية الجامعة بين ارشاد الوحي والعقل فهو آمن من كل جهة حتى ولو صح زعم مخاصميه فان كان الذين ينكرون الوحي ويزعمون ان بعقلهم وحده الكفاية لكل شيء يتبعون ارشاد العقل حقيقة في كل شيء فليتبعوا ارشاد العقل الواضح البديهي الى هذا المبدا وهو السلوك بالطريق الاكثر امنًا اي الاعتماد على الوحي والعقل فيكونون آمنين كيف ما كان الصحيح والاّ فكفاهم ان يتفاخروا باتباع ارشاد عقلهم ويتعاموا عما يرشد اليه بديهيًا وباقل تكلف

انار الله عقولنا لنعلم الصواب ونعمل به ابدًا ووفقنا جميعًا الى مرضاته تعالى والفوز بغايتنا القصوى الابدية وابد اريكة سلطاننا الاعظم المظلل رعاياه بظله الظليل على اختلاف مذاهبهم وطقوسهم بمنه وكرمه «اه»

خطبــة

في الدين

لحضرة الاب الفاضل الخوري يوسف البستاني رئيس الديوان الاسقفي الماروني
واحد اعضاء الدائرة المذكورة

الدين معرفة الله وقضاء ما يحق لهُ من العبادة يعصم الانسان بهِ و بنواميسه بشعائر المهابة والشكر والخضوع والثقة والمحبة المقتبسة من كمالاته الالهية ونيل احساناته السنية وحدهُ البعض بكونه علاقة الانسان مع خالقهِ بداعي الخلقة والحفظ ولما كانت هذه العلاقة قائمة بخضوع الانسان لله واعترافه لهُ بالسيادة كان هذا التعريف مرادفاً للاول وهو الزم واهم واعظم ما ترتب على الانسان من الفروض والواجبات واوجب ما يقتضيه الله منه لاشتماله كل الغاية والغرض من خلقته . لا يخفى ان الله جل وعلا ابدع من العدم برايا عديدة كبيرة وصغيرة ومن كونه عاقلاً حكيماً لا يمكن الاَّ ان يكون رتب لكلٍ منها غاية تناسبه وكافئة بالنظر للخالق فغاية المخلوقات غير الناطقه اعلان قدرة الخالق وحكمته وسيادته بواسطة الانسان العاقل وغاية الانسان العاقل من جهة الخالق تمجيده تعالى بذاته و بالمخلوقات ومن جهة الانسان السعادة الكافية رغبته التي يكتسبها بالدين اي بواسطة امتثاله اوامره ونواهيه وقضاء عبادته بمدد الخالق

فالغرض هنا سادتي بيان اصل الدين ومنشأه ثمَّ بيان لزومه ومنافعه

فعند اهل النهى والصواب اصل الدين من الله الخالق لانه لما خلق الانسان ذا نفس ناطقة ذات عقل وارادة يعرف خالقه ويعقل كمالاته رتب عليه طبعاً اكرام باريه وعبادته وامتثال اوامره ونواهيه وحتم عليه بفروض وواجبات لقيام الالفة المترتب لها يجب عليه قضاؤها بواسطة الدين فمن العجب ان قوماً يعقلون شرف الانسانية ويدعون ترقية اسبابها يجدون السير في التوصل الى اذلالها بانكارهم كل دين واعتنائهم باطفاء نوره في اقرانهم وهم المعروفون بالمعطلة اي الناكرين وجود الله سبحانه فذهبوا في اصل الدين ومنشأه مذاهب كلها غواية وضلال فادعى قوم منهم ان مصدره جهل

العلل الطبيعية وزعم غيرهم انه عمل أُولي السياسة والكهنوت وقد انكروا لزوم الدين بدعواهم انه خالٍ من النفع بل كثير الضرر بالنوع البشري واكبر علة لجميع الشرور الملمة بالانسان فقد كلفت نفسي في هذا المحفل الجليل تفنيد كل هذه السفسفات الوخيمة ايضاحاً للحق في هذه المادة الخطيرة فعليه اقول

ان اسخف الاقوال ما تناقض وتضارب في حيز المحال والضلال فمن هذا الطرز مذاهب اولئك المعطلة في أصل الدين فان كان الجهل منشأه على قول بعضهم لا يكون نظام أُولي السياسة ومكر ذوي الكهنوت مبدعه على قول غيرهم وان كان الخوف علته فلا يكون الجهل ثم لم تعرف امة مولفة لم يكن لها دين فترى هل كان منشا الدين عندها علة واحدة من هذه العلل اي الخوف او الجهل او المكر ام تكاثفت هذه العلل المتضادة على انشائهِ فلا تاتينا المعطلة بجواب ولا ببرهان بل حصروا كل تعليلهم في ما يفترضونه بلا دليل وفيما ينبغي اثباته وليس لهم فيه اثبات فيفترضون ان ما من آلهٍ في الكون وان كل دين وهم وشبح فعلى هذا المبدا الوخيم ينسقون خبطهم ولغطهم في تخليق اسباب للدين فعلينا ان نريهم ضلالهم بالحجة الدامغة لعلهم يهتدون فنقول قد اخطا المعطلة بزعمهم ان الدين نشا عن جهل العلل الطبيعية على اننا لا ننكر ان منظر حوادث الطبيعة وجهل عللها قد ينشىء ديناً كاذباً كما انه ابدع مذهب البوليتيسم اي كثرة الآلهة او مذهب الوثنية انما لا بد من التمييز بين تصور آلهٍ موجود ودين بوجه الاجمال وبين تخريج هذا التصور على غير حقه وفي غير سبيله . ثم بين معرفة علة عاقلة تقوم بادارة الاكوان وبين ضلال من يفترضون عللاً عديدة فشتان بين ضلال ناشىء عن الجهل وبين حقيقة يرد اليها الصواب والطبيعة

ثم لو كان الجهل منشا الدين للزم القول بان كل ما ازدادت الشعوب جهلاً زادت ديناً والحال ان الواقع ينبيء بالعكس اذ قلما وجد أثر للدين عند الامم البرابرة والجهلة الغرقى في لجج التغفل والهمجية لكنها لما اخذت بالتنقه والتمدن واشرقت في آفاقها شمس العلوم والمعارف ازهر بينها الدين ازهاره وحلت ثماره فالبلسجيون قطان اغريق الاول حينما كانوا غرقى في دوامس الجهل والوحشية لم يكونوا يعرفون الآلهة الذين عبدوهم لما تفقهوا وتمدنوا ولم يكن عندهم في جهلهم ووحشيتهم ذكر لآلهة طنطن بهم شعراؤهم وعلماؤهم كهسيود وهوميرس واوعبوا بطون كتبهم الشعرية من مدائحهم ثم رومية لم تكن

قبل توما تنقطع الى عبادة الاوثان كما عكفت عليها بعد عهد

وترى هل يدعي المعطلة ان اسلافهم في الكفر كانوا اعلم وافقه في الطبيعيات من علماء مدارس رومية واثينا وهل يتخلون لننوسهم السبق على غيرهم في المعارف الطبيعية فان ادعوا فما دعواهم الا ادعاء وجهل وغطرسة كان ابوكورس بلا دين ومثله تلامذته وشاهده ما كتبوه مما تمجه السماع لما يحتويه من فظاعة الجهل والمجون ولا يخفى انه كان اجهل الفلاسفة في المعارف الطبيعية فيما ان مشاهير فلاسفتنا المحدثين كدكرات ونيوتون ولبنسيوس كانوا على اخلص الدين واحسنه وعكسهم فلاسفة المعطلة الذين نادوا بانكار وجود الله فلما اتوا بالكلام على المسائل الطبيعية وارادوا ان يعللوا كل شيء باسباب مادية ظهر حينئذٍ جهلهم وظهرت غباوتهم فما كان كلامهم الا ثرثرة وسفسفة ليس فيه اثر المعنى او الصواب

وربما يرد علينا المعطلة بان خلاعة الدين والكفر في هذا العصر عصر العلوم والتمدن حجة قاطعة على ان الدين نجم عن الجهل فنجيبهم ان الكفر وانكار الدين لم يصدرا عن العلوم والمعارف في هذا العصر بل كان منشاهما جور العقول وخمولها بسبب الانقطاع الى اللذات والشهوات البدنية ومن ذلك نفورها وتنزهها من المعارف الراهنة الوثيقة ولنا شاهد على ذلك ايضاً فيما حل بالاغريق ورومة حين دخلها مذهب ابوكورس فانباتنا التواريخ بان قد افلت منهما وقتئذٍ شمس المعارف وانقطع دابر العلماء والفلاسفة وهل من يقول ان المرئيسي كافراً من جراء انقطاعه الى الدروس وانهماكه في اقتباس المعارف اياماً واعواماً كلا بل ان الكفر ياخذه في ثورة شهواته وسورة صبائه قبل ان يحصل على زمن التفقه فيعمه في جهله وغطرسته وينقلب منقلب الخلاعة والمجون فيظن نفسه اعلم العلماء وينظم في مصاف الجهلة جميع الذين يدينون مع انه اجهل الجهلاء واغبى الاغبياء ليته يقتبس شيئاً من المعارف في تمادي عمره اذ يتوفر له بذلك سبب الرجاء للارعواء والخروج من دغلة الجهل والكفر

فكفى ما اوردناه سادتي برهاناً على فساد دعوى المعطلة بان الجهل منشا الدين وبياناً لعكسه اي ان الجهل منشا الكفر والمجون والعلم منشا الدين والاداب فلنات الان بالكلام على دعوى المعطلة بان الخوف الملم بقلب الانسان من حوادث الطبيعة الهائلة هو علة للتدين فنقول ان ما هذا القول الا من غريب الخطاء والضلال على

اننا نسلم ان الجهلة يهالون من طوارىء الافلاك المرعبة اكثر من العلماء غير ان هذا الخوف لم يكن قط علة في انشاء الاحساسات الدينية وهاكم البرهان

يدّعي الكفرة ان اول الاديان كان مذهب كثرة الآلهة او مذهب الوثنية فنجيب لكنا نصدق دعواهم هذه لو لم يتدارك الله قومه بالوحي ومع ذلك فنقول بمعزل عن هذا الوحي ان دعواهم بكون الخوف علة الدين لا تزال باطلة فقد انبأنا التاريخان المقدس والعالمي ان اقدم المذاهب الوثنية كان عبادة الكواكب والشمس والقمر والعناصر لانهم كانوا يحسبون هذه الاكوان متنفسة حتى عم هذا الاعتقاد العلماء والاميين فليت شعري اي شر او اية نكبة قاسى الناس من قبل هذه الافلاك لا شر ولا ضرر بل انهم كانوا يبتهجون من حركاتها وينعمون ابصارهم ببهاء نورها ويدركون مآثرها فطنطنت بها الشعراء ولم يعزوا اليها قط ضغينة ولا نقمة بل ان الافتتان بجمالها ومعرفة احسانها مال بالعقول والقلوب الى عبادتها وشهد بذلك كتاب الله العزيز في تثنية الاشتراع ص ٤ عد ١٩ حيث قال: وكيلا ترفع طرفك الى السماء فتنظر الشمس والقمر والكواكب وجميع جند السماء مما جعله الرب الملك حظًا لجميع الشعوب التي تحت السماء وتسجد لها وتعبدها . وفي سفر ايوب ص ٣١ عد ٢٦ : هل نظرت الى النور حين لمع او الى القمر يسير بالبهاء فافتتن قلبي سرًا : وفي سفر الحكمة ص ١٣ ان جميع الذين لم يعرفوا الله هم حمقى من طبعهم لم يقدروا ان يعلموا الكائن من الخيرات المنظورة ولم يتاملوا المصنوعات حتى يعرفوا صانعها لكنهم حسبوا النار او الريح او الهواء اللطيف ومدار النجوم او لجة المياه او نيري السماء آلهة تسود العالم فان كانوا انما اعتقدوا هذه آلهة لانهم خلبوا بجمالها فليتعرفوا كم ربها احسن منها اذ الذي خلقها هو مبدأ كل جمال (اه) ومثل ذلك قيل عن العناصر فانها قد انصفت ابدًا بالخير والاحسان وقد افادت الانسان الاَّ ما ندر جدًّا حنظًا وغبطة وكان غرض الناس عادة في تقديم الاكرام والعبادة للمشتري وجونون وليي الصحو والمطر ولفستا وفولكان حافظي النار ولنبتون وللنف حافظة الانهار والعيون وللارض ولسارس التماس الجدوى واداء الشكر على الاحسان لا تخميد نار الغضب وندب الشقاء والمصاب

ويكاد يوجد بين الوف الآلهة الذين عبدها الناس وغالت الشعراء في مدائحها عشرة حسبت من الموجودات المؤذية من طبعها وقد اجمعوا على وصف الآلهة بالفضل

والبركة والجود فدعوهم آلهة جوادة بالخيرات وسموا كلاً منهم ابا وكلاً من الآلهة اما فلا شك ان هذه الالقاب وهذه النعوت لا تشير الى الرعب والاحتراز ثم ان الاعياد والمحافل الدينية كانت عند جميع الامم تنبيء بالحظ والفرح لا بالحزن والترح وما زالت الولائم والانغام الموسيقية والرقص من فروع العبادة وكان لهذه الاعياد علاقة باشغال الحراثة يقضونها عقيب الزرع والقطاف والحصاد والغرض منها اذاً اداء مواجب الشكر للآلهة على احساناتهم لم يرَ قط اثر الغم في اعياد الآلهة بومون وسارس وباخوس والزهرة ولم يسمع بعبادة وثنية قصد بها ذكر نكبة الموت بالبشر بل ان مثل هذه التذكارات كانت معلقة على يوم صوم وحداد فلو كانت الوثنية تنفث في القلوب الحزن والغم لما صعب ابداً اقتلاع الشعوب عنها وهدايتها صراط الدين القويم

لا ننكر ان الغبطة الثابتة والرفاهة الدائمة تقسي على الغالب قلوب البشر وتقبل بهم الى البطر واذكار المحسن الاسمى غير ان هذا دأب اكثر المعطلة فلا بد لهم اذاً من انقلاب حال او اعتراء داء او حلول كدر ليتنبهوا ويرعووا عن غيهم اما هم فيستنتجون من ذلك ان علة الدين الخوف والحزن وانكسار القلب الناشيء عن التدهور في دركات التعاسة الا انهم يخطئون شر الخطاء بقياسهم قلب غيرهم على قلبهم فان كانت الغبطة تقسي الانسان وتحمله على الظلم والبهتان لا يتاتى الحكم بكون هذه الشوائب تطابق الصواب والفضائل المقابلتها تنشا عن صغر النفس

ثم اذا افترضنا صحة القول بان الانسان لايحسن دينه الاَّ حين تلم به ملمة وياخذه كدر وغمة فينتج كونه لازماً له بخلاف ما يزعمه المعطلة ولما كانت جميع البشر عرضة للتألم واكثرهم يقاسون الالم فعلاً فمن البديهية ان الايمان بالله افضل حظ للانسانية وان المعطلة قوم حمقى فيما يعملونه من تقويض اركانه

ثم ليس باقل خطاء ايضاً زعمهم بان الدين صنعة الحكام او مكر ذوي الكهنوت فلا يخفى في بادي البدء ان هذا القول ينقض قوليهم السابقين كما تقدم لانه ان صح ان الدين ناشيء عن جهل الشعوب البرابرة الشنيع او عن الخوف وذكرى ما يدهم الجميع من المصائب والنكبات فلا يكون حاجة ان اولي السياسة والكهنوت يدعونه في قلوب الناس لاستعبادهم على انهُ من المؤكد ان الدين وجد في كل مكان قبل وجود الكهنة لا بل ان الكهنوت ناشيء عن الدين ولا يعكس ومن ثم ترون سادتي ان اقوال المعطلة

تناقض ومحال ولنا غير هذه الحجج في ابطال مدعاهم

فنقول ان الكفار قاصرون عن ان ياتونا بمشترع واحدٍ من المشترعين المعروفين يكون شيد اركان معرفة الله ابتدائيًّا عند شعب لم يكن لهُ ايمان بوجود الالوهية فالفلاسفة الهنود ادعوا انهم تناولوا الدين من برهما فلا عبرة بكونهم حسبوه الهًا او بشرًا غير ان ما من احد منهم يدعي بان الهنود كانوا معطلة قبل ذلك العهد فان كان برهما الخلاق فيكون حبا الناس الدين يوم خلقهم وقام في الصين مشترع دعا الناس الى دينه الا انه قد اعترف وحقق ان ما دينه الا ما علمه حكماء الصين الاول فلم ينحل لنفسه ابداعه عند الصينيين وقام في فارس مشترع اسمه زورو واسترد الاعجام والكلدان الى الاقلاع عن مذهب الوثنية ولم ينادِ عليهم بالارعواء عن انكار الله وقام موسى عليه السلام نبيًّا عند بني اسرائيل بوعز اليهم بان اعبدوا آله ابائكم اله ابرهيم واسحق ونوح ولم يكونوا يجهلونه والحاصل ان ما من نبيٍّ من الانبياء ولا مشترع من المشترعين اضطره الحال الى ان يبتدي بتشييد الايمان بالله قبل البدار الى سن سننه

هذا وقد وجدت معرفة الله واعمال العبادة جارية عند شعوب لم يقم قط بينهم انبياء ولا مشترعون كقطان الجزر الذين لم يبرحوا غرقى في لجج التوحش ولم يرَ الى الان شعب خلا من آثار الدين والايمان بالله فليس هو اذًا عمل الحكام والمشترعين ولا اختراع ذوي الكهنوت بل انما هو اقدم من جميعهم والكل اوعزوا به وجعلوه على خطة النظام والقرار وسنوا السنن على اركانه لكنهم لم يخترعوه ولم يحققوه كما اننا اذا قلنا انهم شيدوا النواميس على اركان التحاب والاحسان ومحبة الوطن وشهوة الامتداح ومخافة العقوبات فلا يقال انهم هم اول من ابتدعوا هذه الشعائر الطبيعية بل ان الالفة المدنية التي رتبوها قد وسعت نطاق هذه المبادىء ومتنت اركانها لكنها لم تبدعها ولم تستنبت بذارها هكذا الدين

ونقول ايضًا ان هولاء المشترعين وذوي السياسة والكهنوت اما انهم كانوا يؤمنون بالله ويدينون كما اوعزوا اولاً فان كانوا يؤمنون فكيف أتى هذا اليقين على عقول جميعهم مع اختلاف ازمنتهم وتباعد بلدانهم وتفاوت عاداتهم وطباعهم ومشاربهم كبني الصين والهند واوربا وافريقية والشمال واليمن وكيف اجمعوا على ان هذا الايمان يجدي البشر نفعًا فيما انهُ في رأي المعطلة موعب ضررًا واذًى ما من عجب في ان الحكماء يجمعون

على ادراك حقيقة من الحقائق انما من المحال ان يستولي على جميعهم ضلال واحد بعينه وان كانوا لا يؤمنون فيكون جميعهم معطلة ناكري وجود الله مكارين افاكين مرائين دعوا الناس الى دين طمعاً بمنفعتهم الخصوصية وزجوا البشر في لجج التعاسة والشقاء ولكننا نسال المعطلة كيف توسل هولاء المكارون الى امتلاك رقاب البشر المتوغلين في الوحشية والشديدي التعلق بحريتهم واستقلالهم حتى موهوا على عقولهم معرفة اله ودين لم يخطرا لهم قط على بال واي سبب حمل هولاء المرائين جميعهم على قبول نفس هذا الضلال

فالحق اذاً ان ما من مشترع كان ينكر وجود الله وما من نكير لوجوده تعالى جدير بان يكون مشترعاً فمن يصنع ديناً تأييداً لغرض السياسة وحده اوطلباً لمنفعته الخصوصية يعلم كما علم هوبس ان الدين ينبغي ان يكون موكولاً الى امر المشترع وان الملك هو ربه وقابض على عنانه اما جميع المشترعين حتى الكذبة فقد اوعزوا بالخلائق مجمعين على وجوب العبادة لله بامره وعلى كون الدين منه وله وعلى انهم ليسوا الاَّ رسله وخدام كلمته وليس كذب بعضهم بدليل على انكار الالوهية بل ان اتفاق كلمتهم على الغاية برهان على ان نظام النواميس وتشييد اركان الهيئة الاجتماعية على غير الدين ضرب من المحال وقد صدق بلوترك بقوله . ان بناء مدينة في الجو لايسر من تشييد مملكة بلا آله ولا دين ولما كانت الطبيعة قد رتبت ان الانسان لايعيش في الانفراد والوحشية حتمت عليه باتخاذ دين وعليه لا يستطيع المعطلة سبيلاً الى تايد مذهبهم ما لم يقبلوا نظام الطبع البشري بكليته فقد ثبت بنفس هذه البرهانات ان الدين لم يكن قط من مكر ذوي الكهنوت اذ من المحال وجود كهنة قبل وجود الدين فقبل ان تالفت الناس شعوباً كانت مؤتلفة عيالاً يسودها اربابها وكان الاب قبل ان يسلم اولاده ديناً يتناوله هو نفسه من سلفه او يضطر الى ابداعه وعلى كل لم يكن له داع لذلك الا يقينه بلزوم الدين وصحته فمنشا الوثنية تأتي عن دفعة عمومية في الطبيعة حملت الناس على اليقين بان كل ما يتحرك حي ذو نفس وبالتالي باعتقاد وجود روح في جميع الاجرام المتحركة ومن ذا توهموا ان العالم موعب ارواحاً عاقلة تنشيء جميع حوادث الطبيعة صالحة كانت اوطالحة ولما كانت هذه الحوادث تفوق قوى الانسان وعليها وكلت سعادته وتعاسته رأى الانسان وجوباً لتدارك غضبها واسترضائها بالاكرام

والتقادم واذا دعاها آلهة ولهذا لم يكن من الوجوب ان نبيًّا كذابًا او مشترعًا مكارًا يخترع آلهة او عبادة يطغي بها الناس لان هذه الافكار قد طرأت على عقل الجاهل الغليظ حتى كان الاب يوعب ذهنه منها وينقلها الى اولاده بدون قصد اغوائهم وعلى فرض انهُ لم يكن يعلمهم اياها بصريح العبارة كانوا هم يقتبسونها منه فعلاً لدى نظرهم اياه يقضي عبادة ويقدم قرابين وضحايا ومطانيات للشمس والقمر ولباقي المخلوقات فحملوا على اقتفاء اثره وهكذا نشا الدين الاهلي بدون ان يكون يد فيه للسياسة او المكر او المصلحة الزمنية ثم لما اجتمعت العيال شعوبًا وهي مشربة بهذه الافكار ومعتادة هذه العبادة الاهلية وكانت وحدة العوائد في الفة واحدة اصبحت العبادة عمومية بعد ان كانت خصوصية ثم رأوا من الواجب تفويض ادارتها الى من كان اقدم سنًّا واجل قدرًا وافضل حكمة بين الشعب ولهذا الداعي نفسه رأوا ان يلجاءوا اليه في مهام الاحكام فكان من ثم اجتماع الكهنوت والملكية عند جميع الشعوب الاول فما من مكر اذًا ولا من غش ولا من افك في اصل الدين على انهُ لا يبعد عن الصواب ان ذاك الكاهن والملك يكون فيما بعد اخترع بعض خرافات او حكاية تسديدًا او احتياطًا لسلطانه (جزء ٢)

ولم يخجل اعداء الدين من زعمهم بخلوه من النفع والانسانية وبجواز الاستغناء عنه بدون طائل فنقول ان الدين لازم كل اللزوم للانسان في فرديته وبالنسبة الى سعادته الخصوصية وبانتمائه الى الهيئة الاجتماعية المعد لقيامها ولنا دليل على ذلك اولاً من زعم المعطلة انفسهم بكون الدين ناتي للانسان من شعوره بالاكدار كانه التمس سلوانًا بتوهمه الها يستطيع سبيلاً الى معاونته ومعاضدته فينقذه من الامه ونوائبه آجلاً او عاجلاً فالناتج من ذلك ان المعطلة معدمون كل سبب تعزية وفرج ورجاء وقد اقر بعضهم بهذه النتيجة اكراهًا ولما كان جميع الناس عرضة للتالم والاحزان في هذه الدنيا بدرجات مختلفة كان ضربًا من الهون الاستغناء عن موارد التعزية والفرج بالدين فاذا قابلنا كافرًا متالمًا بمومن يشاركه في الالم وهو راسخ القدم على الخضوع والتسليم لامره تعالى والثقة بجوده لا يصعب على ناظرهما ان يرى ايهما افضل حظًّا واوفر راحة

متى آمنت ان الله خلق العالم تيقنت ان لا عجز في قدرته وانه كفوء لكل شي ولم يبدع الخلائق الناطقة توفيرًا لسعادته بل لسعادتها وانه اذا لم يولها احسن حالة من

الغبطة علمت ان ليس ذلك من عجزه او ضنه بل لدواعي معقولة لا يتوفر لي ادراكها واذ ذاك عقلت ان كل ما يقيمه المعطلة من الاعتراض على الشرور الطبيعية او الادبية في العالم او يبدونه من التظلم محض خطاء ومحال لا ازعاج لي منه ولا سخس وان كنت تعيساً او لست سعيداً كما اشتهي علمت ان الله سبحانه هكذا شاء توفيراً لي لما كان افضل لانه جل وعلا منزه عن الجور والقسوة والحمق فيتحتم عليَّ ان اقمع شهواتي واصبر على ما يلم بي من الملمات والاكدار واتوقع مستقبلاً افضل اقله بعد هذه الحيوة واعتقد العناية الصمدية وارتاح الى ما رسمته من النظام الطبيعي الدائم وبالاولى الى ثبات النظام الادبي الذي بدعه الله واتاكد ان ما رقش على صفحات قلبي من سنة العدل واصوله يعمّ جميع البشر وهو لي ضمان الامان والثقة ومتى عرفت بشراً يؤمنون مثلي باله عادل وبناموس طبيعي وبالاخرة فلا خوف عليّ من معاشرتهم ومخالطتهم فيما انني لا اتجرا على ان امازج جمهور معطلة اذ ليس لي بهم ادنى ثقة وما زلت اقول ان تشييد الفة بشرية على اساس متين غير الدين ضرب من المحال وقد اعترف الكفرة ذلك اعترافاً بيناً بزعمهم ان الدين اختراع ذوي السياسة وواضعي السنن لانهم يشعرون باحتياجه لتاليف الفة بالشرائع وفي الحق اذا تاملنا جميع المشترعين لا نرى واحداً منهم لم يعد مشية الله ركناً وحيداً لجميع الشرائع ولجميع واجبات الانسان

وحسبنا برهاناً على ذلك بيان مذهب المعطلة في تاسيس الالفة فيعتبر هولاء ان الانسان نبت صدفةً من جوف الارض وذهبوا ان ليس لهُ من طبعه ادنى حق ولا عليه ادنى فرض بالنسبة الى مثيله وان لكل حقًا على ما يستطيع سبيلاً الى اخذه بالقوة ولكن لما كان هذا النظام لا يجدي البشر نفعًا راوا ان يعيشوا بالالفة وذلك افضل لهم فعهدوا الى هذه المعيشة واتفقوا على وضع قواعد للعدل والانصاف وعلى رسم شرائع للملكية والرياسة فرسموها وعنوا لاحكامها وبالتالي ان الالفة عندهم تشيدت على ركن هذا الاتفاق الذي يسمونه عهداً النيًا والحال ما من مذهب اسخف وما من قول ابطل من هذا المذهب والقول وبرهانه اولاً من المحال الذي يمجه السماع زعمهم بان الانسان نبت بطريق الصدفة من جوف الارض والصحيح انهُ نشاة علة عاقلة قديرة وحكيمة لكون تركيبه ملحمة الحكمة والصناعة وهذه العلة انما هي الله الذي بدع الانسان ورتبه على ان يعيش في الالفة ولا يمكنه ان يعيش هكذا بدون ان يكلف الى قضاء

فروض وواجبات يستلزمها قيام الالفة اذ لا يصح قصد الغاية بدون قصد طرقها ووسائطها فارادة الخالق اذًا نفسها هي السنّة الاولى الاساسية اي الناموس الطبيعي الذي يعنو لهُ الانسان منذ خلقته وهو سابق لكل اتفاق وعهد يبرمه باختياره وهو ضمين لحقوقه وكفيل بامانه وغبطته قبل ان يكون قديرًا على معرفته وهو يقضي على اقرانه بمحبته وحفظهِ ووقايته من الضرر

وترى هل من وثاقة لعهد ابرم بين كثيرين كل منهم مستبد بامره ومستقل عن غيره بدون ان تسوده شريعة تكلف كلاً منهم بحفظ ذمامه ورعاية عهوده فمن المحال ان الانسان يكون رب عهده او رابطًا لنفسه او محكوم ارادته لان العلة التي تسن الشريعة او الواجب تقدر ان تنسخها وتلغيها على مرادها فاذا سنّ الانسان لنفسه سنة باختياره فمن يمنعه من نسخها على هواه فالشريعة هي رباط الارادة تشير الى ان واضعها وليّ ورئيس لمن وضعت عليه وتقيد بالزامها فمهما كان اذا العهد الالفي وثيقًا لا يزال كل فرد من البشر وليّ الزامه لا يصح ان يكره الا بالقوة وقوة الاخر لا تكلفه ادنى فرض فيكون الخضوع لهذا العهد او نقضه مباحًا لهُ الا ان تكلفه سنّة اعلى الى اقامة حدوده فاذًا لا يمكن ان يقوم للعهد الالفي قضاء او حكم الا بقوة الناموس الالهي

ثم مع فرض ان العهد الالفي يلزم من عقده فلا يسري حكمهُ الى من لم يعقدوه ولم يكونوا ولدوا بعد فطالما افترضنا الانسان مستقلاً من طبعه ما من احد يحق لهُ ان يعاقد على اسمه فليس للوالد من سلطة على الزام اولاده اكثر مما للاولاد على اجبار والدهم ولا على الولد الذي مولده فرض للالفة لانهُ لم يعاهدها ولا على الالفة فرض لهُ فلها اذًا ان تدعه يهلك ولا تواخذ بانتهاك حرمة الالزام والفرض فهذا من نتائج مذهب المعطلة الفظيعة فاعتبروا

ولو اعتمدنا هذا المذهب لما كان فضيلة في العالم الا فيما توعز بهِ الشرائع المدنية ولما كان من رذيلة الا فيما تحظره فعليه تصبح عادات الشعوب الاشد توحشًا وبربرية وطرايقهم اعمالاً شرعية مبرورة كلما صوبتها الفتهم وقررتها سنتهم فيكون اذا قتل الاولاد تخلصًا من عناء نفقتهم واعالتهم من البر والصواب على حدّ سوى ومن الامور الحميدة اكل لحم البشر او الاقتيات من ثمار الارض بدون فرق ومما يطابق الصواب على حد واحد اقتفاء اثر البهائم واتباع اداب الشعوب المتمدنة . وعلى هذا المذهب نفسه

لا يتقيد الانسان بحفظ السنن الاّ احتياطًا لمنفعته الحاضرة حيث اذا نقضت السنّة منفعته او تمكن من تخطيها بدون مواخذة او احسن الاحتيال للفرار من حكمها او ساعدته القوة على مقاومتها جازلهُ كل ذلك اذ لا يبكته ضميره لانهُ وليه وربه ولما كانت المنفعة وحدها هي التي سنت العهد الالفي كانت هذه المنفعة نفسها حرية بان تأذن للانسان في تقويض اركانه

ثم لو افترضنا ان انسانًا او عضوًا من اعضاء الالفة يتعدى شريعة عاملاً على مضرة نفسه يقال عنهُ انهُ احمق لانهُ جري اما على فرض وجود سنة الاهية وطبيعية قد تاتى بواعث تقضي على ان يكون من اسمى الفضائل تضحية المنفعة الخصوصية والاغضاء عن اعظم الملاذ والعمل بقمع الذات حتى التساهل في الحيوة نفسها ففي مبادئ المعطلة كل هذه تعد ضروبًا من الجنون تجحف بحقوق الانسانية وهذا ايضًا من نتائج مذهب المعطلة الوخيمة ولو اردنا استيفاء المقال فيها لطال بنا المجال الى ما يفوق حد الاعتدال

على ان حجة الكفرة الوحيدة على عدم فائدة الدين هي دعواهم بقصوره عن جميع المعاصي التي يرتكبها من يدينون او يتظاهرون بالدين فنسمعهم يغالون في وصف جميع الارتكابات الجارية بين الامم الدينية ويقولون انها ليست باقل من التي ترتكبها الكفرة فآداب هولاء ليست بشرٍ من اداب اولئك ولو خلع جميع الامم شعار الدين واصبح الناس كلهم معطلة لما زادوا ارتكابًا للمعاصي فنجيب ما اكثر ما يعبر هذا الكلام من الطيش والسخافة وما من حاجة لنا الى تكذيب دعواهم بعدم الفرق بين اداب الامم الكافرة والامم المؤمنة بل نقول اذا أثم ثقيلاً يقاوم جميع الاسباب التي يقدمها الدين لهُ لكنه عن الاثم بل جميع ما يرشده اليهِ الصواب من الحجج القاطعة كالمنفعة المعقولة ومحبة الذات المرتبة ورغبة الاعتبار ومخافة المواخذة وغير ذلك فالمعطلة يزعمون ان حجج الصواب وحدها كافية بدون افتقار الى الدين لاقامة الناس على خطة البرّ والفضيلة مع اننا نراها فعلاً قاصرة كاسباب الدين عن اقصاء المؤمن عن الاثم لانهُ يقوى على جميعها معًا فان نتج ان الدين غير نافع لتحسين الآداب تحتم الحكم ايضًا بعدم فائدة الصواب والضمير والتنشئة والسنين والثواب والعقاب فبرهان المعطلة اذًا يرد على مذهبهم ولا عبرة لما ياتونهُ من الرد السخيف الباطل بكون الدين يمحو من المومن الاسباب الطبيعية التي

يحملنا بها الصواب على الفضيلة ويحولنا عن الرذيلة لان الدين لا يزري ادنى سبب من هذه الاسباب متى كانت مرتبة فهي اذا قوية في قلب المومن والكافر على حدّ سوى لا بل هي افعل منها في قلب الدائن لتعززها باسباب الدين المقارنتها فمن اشنع المحال اذا القول بعدم فائدتها في المومن اكثر منهُ في الكافر

ناهيك ان الانسان المتصف بالفكر والحرية هو عرضة لالام عديدة مختلفة ولم يخلق ليعمل عمله بالاكراه كالبهائم ولا ليسلك مسلكها بل انما هو من طبعه امارة في التقلب وجدير بالتنقل من الفضيلة الى الرذيلة فكلما وفرت محنه وفرص سقوطه زاد احتياجه الى دواعي مختلفة لاتقاء السقوط فمن الواجب اذًا الا ان تلغى لهُ دواعي الدين والصواب بل ان تبدع لهُ اخرى ما امكن . كان الابوكريون في سالف الزمان يجتهدون في اثبات عدمية النفع من الصواب ويدعون ان ولادة الانسان شبيهًا بالبهائم خيرٌ لهُ من ولادته بشرًا فهذا اشبه بمذهب المعطلة فتامل .

ولم يقف الكفرة على هذا الحد من سخافة القول بل تمادوا في الشطط الى حد انهم زعموا ان الدين وهمٌ مضر بالانسانية وانهُ ما زال في كل حين اكبر علة للشرور الملمة بالنوع البشري متعللين على ذلك بقولهم ان الدين يعذب الانسان بما يوسوس اليهِ ابدًا من عتاب خالد وعدل اله مقسطٍ غاضب ابدًا وان هذا اليقين يوليه جبنًا وهلعًا وانهما كًا بامور الآخرة واهمالاً بمصالح هذه الحيوة فنجيب لو لم يكن للانسان ما يخشاه في هذه الدنيا والآخرة لاصبح كثيرون من البشر اشرارًا رعايين لا تمكن معاشرتهم ولو لم يكن ثواب لاهل الفضيلة في الآخرة لقل من تبسل في ادراكها وجد في اتقانها وعلى ما قال رسول الامم عليهِ السلام لكان القديسون اشقى اهل الدنيا على اننا لا نشك في ان الكفرة كثيرًا ما يهلعون ويرتعبون لدى افتكارهم بعدل الله وعقوباته المؤبدة اذ ما من يقين لهم بكونها حديث خرافة وهذا دليل على ان ضميرهم يواخذهم بسيئاتهم الا انهم يخطئون شر خطاء في اعزائهم نفس هذا الهلع والارتعاب الى من يحسنون دينهم لان هولاء الدائنين يعلمون ان الله رحوم رحمان كما انهُ عادل وان جهنم نصيب الاشرار المصرين على اثامهم ومن الموكد ان الدين الحق لا يصور لنا الله في هيئة الغضب والسخط بل يمثلهُ لنا راضيًا بتوبة الخطاة الذين ينشدهم ويدعوهم اليه ولا يعاقبهم الا لينتبهوا ويرعووا عن غيهم وترى هل للمعطلة المدعين بكون الدين يولي اصحابه هلعًا وجبنًا

ان ياتونا من بين الكفار برجال يضارعون القديسين بسالة وحمية واجتهاداً في ترقية اسباب العمران والخير العمومي ونفعًا للنوع البشري فقد شهد الاقدمون كلهم ان الابوكريين واصحاب مذهب الارتياب ومن ضاهاهم كانوا اخلى الناس نفعًا لغيرهم وانبضهم همة واجمدهم فكرًا وقريحةً لم يفيدوا العالم الا تحتيرًا للفضيلة ورزء اللهمة المبذولة في سبيل الخير العام فالدين يعلمنا ان اضمن واسطة للحصول على السعادة الابدية هو الانقطاع في هذا العالم الى خدمة الغير ومنفعته

وننكر كل الانكار زعم المعطلة بكون الدين منشيء الانقسامات بين البشر ومثير الشحناء بين الامم ومضرم نيران الحروب بين الشعوب ودليله ان نيران الضغائن والخصومات هي اوقد واسعر بين الشعوب البربرية المتوحشة القليلة الدين لما هي بين الامم المتدينة المتمدنة ولما كانت كلها ملتحفة بالضلال او كلها وثنية كانت اشد نزعةً الى الخصام واكثر اصرارًا على الضغينة والشحناء فعلة التباغض والتشاحن بين الامم انما هي الغطرسة والحسد والطمع ومصالح التجارة وحب الفتوحات واذا قيل ان الامم الدائنة مع اعتمادها الدين وحسن الاداب لا تزال في تضاغن وتشاحن فهذا برهان على ان الالام النفسانية فيها داء عضال لا يشفيها منه الكفر بالله ولا ننكر ان دين الاسرائيليين كان في القديم يدعوهم الى الانفصال عن باقي الامم لانها كانت غرقى في اقصى لجج الغباوة والفساد ومع ذلك لم تكن الشعوب التي حاربها الاسرائيليون على وفاق ومسالمة فيما بينها اكثر مما كانت بينها وبين اليهود

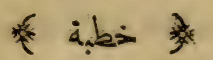
هذا وقد تفاقم خطاء ناكري الدين برفضهم وتكذيبهم الدين الموحى اكتفاء على زعمهم بالدين الطبيعي وهو على قولهم ما يرشد اليه الصواب المتروك لرحمة نفسه وانواره الخصوصية من العبادة الواجب اداوها لله سبحانه فمفهومهم هذا بالدين الطبيعي هو عين الخطاء والضلال لانهُ ان كان المقصود بقولهم الصواب المتروك لرحمة نفسه الخ عقل انسان بربري نشاء في الكهوف والغابات وبين البهائم لم يقتبس علمًا ولا تربية من احد فترى اي دين يستطيع عقل هذا الانسان ان يبدعه وان كان المقصود عقل انسان امي ولد في المذهب الوثني وربي عليه فلا شك يرى هذا الديانة الوثنية احق الاديان واوفقها للطبيعة هكذا رأت الفلاسفة انفسهم مع ان عقولهم كانت في اعلى درجة من التثقف والاستنارة فلما نودي عليهم بعبادة الهٍ واحد روح خالق جزموا بتكذيب هذا الدين

وبمناقضتهِ للصواب وان كان مفهومهم عقل فيلسوف نشا على دين الحق فمن المحال القول انهُ متروك لرحمة نفسه وانواره الخصوصية لانه تنفه منذ حداثته في الوحي فالدين الطبيعي اذًا بتعريف ناكري الوحي وزعمهم اسم بلا مسمى واختلاق دماغهم

ولا فائدة لهم من قولهم ان الدين الطبيعي هو ما كانت جميع حقائقه ووصاياه ممكنة للادراك بمجرد نور العقل لان ما كان ممكنًا ادراكه لعقل العالم لا يتيسر ادراكه لعقل الجاهل فحقيقة خلقة العالم هي سهلة الادراك والبيان بمدد الوحي ومع ذلك قد ظهرت كاذبة ومستحيلة الادراك على عقول جميع الفلاسفة الاقدمين والحاصل ان الدين الطبيعي هو الدين الاولي الاصلي الذي رسمه الله سبحانه على ابينا الاول وعلى الاباء وذريتهم لانهُ كان وافيًا تمام الوفاء بحق طبع الله وطبع الانسان بالنسبة الى الظروف التي وجدت فيها الانسانية في تلك الازمان وهو دين فائق الطبيعة ايضًا لكونه موحى ولولا الوحي لاستحال على الناس اقامته وخلاصته هي ان الله سبحانه روح محض على كل شيء قدير خالق البرايا وسيدها وربها وان الانسان خلق على صورته تعالى ذا نفس روحية ناطقة حرة خالدة معدة للثواب عقيب هذه الحيوة ان احسنت العمل والاَّ فللعقاب ومن جملة عقائد هذا الدين سقوط الانسان ووعد الله اياه بالوسيط المستقبل فموسى عليه السلام نادى على الاسرائليين بدين ابائهم والمسيح ثبت جميع مواده في الانجيل ولم يكن فيه عبادة لكثرة الآلهة الباطلة ولا عادات البرابرة ولا الفظاعات الادبية التي تملكت عند جميع شعوب العالم فالابرار الاولون لم يتبعوا رشد الصواب الاَّ لاستنارتهم من العلا وارتشادهم بتعليم الله نفسه وقد ثبتت صحة الوحي من التاريخ المقدس الذي انبأنا بان الله خاطب آدم وهابيل وقاين ونوح وعائلته ودربهم في سبيل الهدى وانعم بمثل ذلك على ابرهيم واسحق ويعقوب وباقي الانبياء وليس للكفرة ادنى حجة على انكار هذا الحادث الخطير او تعليقه على الشك والارتياب لان تقليداته وآثاره قد حفظت عند جميع الشعوب اذ تيقنوا ان الآلهة منذ خلق العالم خاطبوا البشر وقد اتفقت آثار التاريخ العالمي مع كتبة الكتاب المقدس في ان اول الاديان عند جميع الشعوب اوعز بعبادة الله الواحد وان الشعوب فيما بعد تهورت بالتمادي في عبادة الاوثان فلو كانت الديانة الاولى اختراع العقل لما كان خطاها الصواب بل لكانت اتبعت مسير المعارف البشرية وزادت طهارةً وثباتًا وتوافقًا بزيادة تقدم العقل ونجاحه مع اننا نرى الخلاف لان

الشعوب التي كانت اسبق من غيرها في مضمار المعارف ظهرت اجهل واغبى من الجميع في امور الدين فالكلدان والمصريون واليونان والرومان لم يروا رأيا في الدين اقوم واسدّ من راي الامم واشد جهلاً وتوحشاً وليس من صحة لزعم الكفرة ان مذهب الوثنية وخرافاته هو عمل بعض اناس مكارين اغووا الشعوب بل الصحيح هو انهُ صدر عن تعليلات فاسدة وبرهانات كاذبة وشهد بذلك شيشرون في كتابه في طبيعة الآلهة وهو خلاصة ما ورد في كتاب افلاطون وفي كتاب شلسوس وبوليانس وبوفيريوس فجميعهم عللوا في هذه المادة كما علل الشعب فلو كان دين الاولين بني على التعليل والبرهنة لكان مثل دين المتعللين الذين نحن في صددهم

هذا ما اقتصرنا عليه سادتي من المقال في امر الدين بالاجمال من حيث منشاه ولزومه وما اكتفينا بهِ من البيان لضلال المعطلة وناكري الوحي وخلاصته ان منشا الدين الطبيعي والموحي هو الله سبحانه لا عقل الانسان ولا الخوف من طوارئ الطبيعة ولا مكر ولا دسائس اولي السياسة والكهنوت ثم ان الدين لازم غاية اللزوم للانسان بمفرده وبمعيشته في الالفة وبدونه لا غبطة لهُ ولا راحة ولا امان ولا قيام للالفة ولا وثاقة للشرائع ولا حفظ العهود فقل لاقوام عن سنن دين الله يعمهون وفي اطراح الاسباب يهيمون قد برح الخفاء ولكن لا تفهمون . ام هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ولا تخامرهم ريبة في ان قناة الدين قد ثبتت انبوباً فانبوباً وان صفاته قد بضت بالحق بضاً الى ان فجرته اسكوبا . وفتح للناس الهدى في كل وجهةٍ رتاجا . فدخلوا في دين الله افواجاً فالحمد لله على انعامه عليهم بالهداية الى صراط الدين القويم ونساله برافته الرشد لجميع من ضلوا عن محجته الخلاصية فهو الرحيم الكريم وعليه اتكالنا ونعم الوكيل



خطبة

في الينابيع

لحضرة الاب الفاضل الخوري جرجس فرج ناظر الدروس في مدرسة الحكمة

واحد اعضاء الدائرة الموما اليها

ايها السادة

لا يتوارى عنكم ان الانسان اذا ما سرح طائر الفكرة ونظر فيما يكتنفه من العناصر انتصب امامهُ عنصر يجدهُ منتشراً في جميع الاماكن في اغوار الارض وانجادها في سهولها وجبالها في نباتها وحيوانها لاطعم لهُ ولا رائحة يعمل البرد فيهِ والحرارة عملاً كبيراً فالبرد يجمدهُ والحرارة تفشيه وهو يعاون على نشوء جميع ما نشاهدهُ من العلائم الطبيعية وهذا العنصر انما هو الماء فلا نموّ بدونهِ ولا حيوة فالماء قد استوقف فكر الفلاسفة لتعلق الحيوة عليهِ ومن العجب انهم امعنوا النظر فيه ولم يانوا بما يكشف عن خواصهِ ومركباتهِ فلبث الامر مغلقاً حتى ظهر في القرن الغابر لافوازية الفرنساوي فامعن التبحر ونقب فيهِ ففتح مقفله وتبين انهُ مركب من عنصرين متميزين هما الاكسيجين والهيدروجين ممتزجين فيهِ على هيئة بديعة من الترتيب والاحكام وقد يتخللهُ شيءٌ من مواد تحلل فيهِ وقتاً بعد آخر

اما اخص ما نشاهد من صفاتهِ فهو وجوده في حالتي السيال والبخار فتراه في حراك دائم ينتقل من محل الى آخر ولا يقرّ لهُ قرار فان وجد على منحدر جبل جذبه الثقل فجرى وسالت الانهار وان في حياض وقف تحركه قوة الاهوية وتاثيراتها فتتولد الامواج والسيول .

اما الحرارة فناعل قوي تؤثر فيهِ تاثيراً كبيراً فيتبخر لوجودها ويتبذخ في الجو بخاراً غير منظور ينتشر بين خلال اجزاء الهواء انتشار الماء في الاسفنجة على هيئة تحاكي ما للغازات من السرعة والامتداد غير ان كمية ما يتبخر منه ويستمر متذبذباً في الجو انما

تتوقف نسبتها على الضغط الذي يكبسه والطقس الذي يكتنفه فينشاء عن هذه العلل تغير في حالة الجو فيرى تارةً ممتلئًا بخارًا واخرى فارغًا والبخار فيهِ قليل وعليهِ يتوقف اصل الغيوم والامطار والجداول والانهار ومفاعيل اخرى كثيرة تظهر على سطح الكرة الارضية ليس هنا محل استيفائها

اما المبدا الذي ينبني عليه توزيع المياه على سطح الارض وفي داخلها فهو ان من طبيعة هذا السيال ان يتبخر كل وقت اصبح مكشوفًا لا يكرهه ضغط على اللباثة فيصعد معما يكتنفه من الهواء السخن الى الاعالي الجوية فيتجمد لما هنالك من البرد القارس فيترك حالته الغازية وينعقد اما سحابًا يقع على الارض فيسقيها او ثلجًا يتراكم على قمم الجبال فتذيبه الحرارة فيجري على الارض ماء او يدخل في صدوعها او يسوقه الهواء عند انتشاره فيهِ الى اقاصي الارض اليابسة فلا يصل اليها الاَّ ويعمل فيهِ الثقل ثانيةً فيجري بين كل منحدر يلاقيه ساعيًا في طلب محلهِ الاصلي ضمن البحار وفي ممره يسقي المدن والقرى والاراضي فتسيل الاودية وتمد الانهار وتنبع العيون وترتفع الرطوبات الى اعلى الاشجار وينبت العشب وتنور الاشجار مورقةً وتكتسي الارض حلتها الخضراء ويطيب عيش الانسان والحيوان وقد نظر الى ذلك النبي فقال

جميع الانهار تجري الى البحر والبحر ليس بملآن ثم الى الموضع الذي جرت منهُ الانهار الى هناك تعود لتجري ايضًا

فلو كان وجه الارض غليظًا لا تنفذ فيه الامواه لكان جريانها اقل نظامًا مما نشاهده الان فلقد كان اشبه بالجداول التي تجري مع المطر وتنقطع مع انقطاعه فلا يبقى على الارض والحالة هذه الاَّ الجداول التي تتفجر ينابيعها عن حياض او بطائح او ذوبان الثلوج اذ لا تكون خاضعةً لتاثيرات الفواعل الجوية بل لمنافذ مترتبة لخروجها من اصل الطبيعة فلا ينتج عنها حينئذٍ ما نشاهده من الارزاق والمنافع التي تنشئها الارض ويلتمسها النوع الانساني غير ان الارض وان كانت غليظة كافئة لعمل الانسان ولبثهِ عليها فهي ليست كذلك بالنسبة الى المياه فانها تدخل في صدوعها وفيما نشاهده فيها من الخلال وعليه فاما انها تبقى مخزونة فيها وتمتلي الاوشال واما انها تلاقي منافذ تخرج منها او يتجمع بعضها الى بعض باقنية داخلية ولا يجري على الارض ثلث ما يسقط عليها من الامطار وما فضل فمنهُ ما يرق ويلطف ويتصاعد في الهواء بخارًا ومنه ما تمتصه الارض فيجري

في اقنية باطنية تخالف نظام ما نشاهده في الاقنية الظاهرية فمنها ما يتصل بعضه ببعض ومنها ما ينفصل ومنها ما يجري الماء فيهِ سريعًا ومنها بطيئًا ومنها ما يكون الماء فيهِ راكدًا ومنها ما ينحدر من محالٍ عاليةٍ مائلاً الى الخروج الى وجه الارض فيصادمه ما للارض من الغلاظة فاذا صادف في مروره منفذًا خرج منهُ فائرًا على نسبة ما يكبسه من الضغط وما يكون عليه ثقب المنفذ من الوسع والضيق وهذا يتم على هيئة ما نشاهده في النوفرات الصناعية التي ينشئها الانسان زينةً لحدائقه

فاذا صادف وكان للقناة الداخلية منافذ يخرج الماء منها الى وجه الارض سميت تلك المنافذ ينابيع غير ان هذه الينابيع لا تكون كلها على وتيرةٍ واحدة بل منها ما يستمر جريانه طول السنة لوصول المدد اليها من الامطار ومنها ما يستمر وقتًا معينًا شهورًا كانت او ايامًا لانقطاع المدد عنه او لقلته وقد يكون الخروج غمارًا تجري عليهِ السفن وقد يكون ضعيفًا لقلة التحلب فيه ومن الينابيع ما يكون الماء فيهِ متقطعًا لان المنافذ تجز من الماء اكثر مما يتحلب فيها فيقف الجريان الى ان يتجمع الماء ويصير كافيًا لانشاء جريان آخر وهذا دابه يتفرغ ثم ينشف على التوالي والمياه المنحصرة قد تخرج الى الارض ليس في اماكن اليبس فقط بل في البحار ايضًا وشواهد ذلك كثيرة ليس هنا محلّ استيفائها

أما الامواه التي ليس لها منافذ تخرج منها الى وجه الارض فقد يمكن سبرها واستخراجها بآلات ميكانيكية فتصير المياه الخارجة ينابيع نظير الينابيع الطبيعية وقد عرف ذلك القدماء وعملوا بهِ غير ان هذه الصناعة قد اتقنت اخيرًا فاتت بفوائد جمة فمن الامواه ما يخرج جاريًا على الارض وكميته وافرة ومنها ما يتصل الى حدٍّ في الآبار لا يتجاوزه كل ذلك متوقف على علو اصل الماء واستوائهِ او شدة الضغط الذي يحركه ولا يتسهل استخراج ذلك الا من الاماكن التي يظهر ان في قلبها سيولاً داخلية والمرشد اليهِ انما هي العلوم الجولوجية وقد اتت بمنافع كثيرة

اما ما اتت بهِ هذه العلوم في هذا الخصوص فملخصه ان الامواه في الاماكن التي تكون طبقاتها معدنية ممتد بعضها فوق بعض فتنتج مخرجها بين خلال هذه الطبقات الغليظة وقد تجتمع في طبقات مترتب بعضها فوق بعض يفصلها يبس ويمكن سبرها ووصلها بتوسط المرجاس فتخرج الى وجه الارض ينبوعًا غزيرًا يحيي ما حوله من اليبس

اما الاماكن التي تكون طبقاتها متساوية الترتيب الى الافق فالينابيع التي يكون اصلها في الواحدة منها نشاهد منتشرة على كامل الطبقة والعلوّ واحد وقد تنتج مخرج مخالفًا لعلو اصلها لعارض يطرى عليها عن تركيب الكرة غير انه يشاهد بالاجمال ان الينابيع في المكان الواحد تخرج عن اصل واحد من مصارف كثيرة غير مرتبة الانحاء

اما في الاماكن المنحنية فلا نشاهد الينابيع في سوى سفوحها اذ لا يمكن للمياه التي تجري تحت الارض ان تخرج الا من اسافل الطبقات اما في الاراضي التي لا تكون طبقاتها مترتبة فلا يشاهد فيها نظام لخروج الينابيع كما يشاهد ذلك في اراضي الصوان والرخام فيخرج الماء جاريًا بين خلال هذه الصخور منتشرًا في جميع الجهات وتكون الينابيع فيها كثيرة لا غزيرة واما في الارضين الكلسية فتكون فيها غزيرة والاقنية الداخلية لا يكون الماء فيها غزيرًا ما لم يتصل بعضها ببعض

اننا نشاهد ان الينابيع تستودع امواهها في البحار مذ كانت ولا تزيد على حجمها شيئًا فما ذلك الا لان البحار ترد لها ما تستودعه فيها والاّ فاضت واغرقت الارض . اما كيفية حدوثه وتقويم هذا الاشتراك فقد اختلف فيه : فقال قوم : ان الارض ممتلئة اقنية داخلية تجر ماء البحار الى مغر كثيرة اعدتها الطبيعة تحت الجبال عند نشوها فاذا ما وصلت الامواه اليها عملت فيها الحرارة فآلت الى بخار يتصاعد الى الاعالي فينعقد ماء ياخذ يرشح من الصدوع التي يصادفها ويتجمع الى ان يجد منفذًا فيخرج منه ينبوعًا فان لم يجد بقي منحصرًا تحت الارض الى ان يتقوى فيفتتح مصرفًا يخرج منه والتبخر ينقيه مما يمازجه من الملوحة

وقال اخرون : ان امواه البحر عند وصولها الى المغر التي تحت الارض يصعدها المد والجزر وقوة الهواء التي تنشرها الحرارة الداخلية فتنفجر الينابيع على سطح الكرة الارضية والصحيح ان الحرارة والهواء يوثران في الماء ويحللانه الى بخار يتصاعد من وجه الارض الى الاعالي الجوية بعد ان يتنقى عند تبخره مما يمازجه من الملوحة وهذه القوة المحللة متوقف مبدأها على الضغط والطقس وكلاهما عرضة لكثير من التغيرات المختلفة التي شانها ان ترطب الهواء او تخففه فيحمل ما ينتشر فيه من الابخرة او يتركها بمقتضى ما يعتريه من الطوارىء والظروف فلا يزول البخار يكثر وينبذخ في الهواء الى ان يتصل الى درجة يكون البرد فيها مفرطًا فيجمد البخار فتنشا عنه الاشتية والانداء والضبابات

وغير ذلك من العلائم المائية التي تمد البنابيع والينابيع ترد ما يحل فيها من الامواه الى البحار بتوسط الجداول والانهار او الاقنية الداخلية فيكون الجو والحالة هذه قناة الاشتراك التي رسمها الخالق بين الينابيع والبحار قناة هذا دابه في الصيف والشتاء

ومن الينابيع ما يكون ماؤها حارًّا مع ان الاصل واحدٌ ولا تختلف عن اصل الينابيع الباردة الاَّ لاشتمالها على كمية من الهيدروجين الفوسفوري الذي يتحلل فيكسبها حرارة وهذا الغاز يتجه دائمًا الى الرجوع الى حالتهِ المرنة فان اتفق ان عاونته الحرارة في تبدلهِ صعد لخفتهِ النوعية الى وجه الماء ولا يخفى ان الامواه عند سقوطها على الارض وحراكها الدائم وتنقلها في الاقنية اولبثها في محل واحدٍ قد تتكيف على اختلاف ما تصادفه في جريانها من الدغال وتضم اليها من المواد التي تلاقيها وعليهِ فتتغير نقاوتها وتتبدل حالتها الطبيعية وقد تزول صفاوتها ويعتريها التعكير عند نزول الامطار فاذا صادف ولم يغير حالتها ما تلاقيهِ من المواد استمرت على طبيعتها الاصلية وان لم يكن اصلها عميقًا والمياه التي يكون اصلها عميقًا لا يعتبر بها ما يؤثر فيها عند تبدل الفصول ولا يلحقها من الحرارة الارضية الاَّ ما لا يعبا بهِ وليس لهُ تاثير وعليهِ فلا تتغير حالتها نظير الاعين الصناعية او تلك التي يكون جريانها قريبًا الى سطح الارض

واحسن المياه واجودها تراه نقيًا صافيًا عذبًا لا رائحة لهُ يتسنى تسخينهُ وتبريده ويذيب الصابون بسهولة وينضج البقول ولا يفقد شفافته عند غليانهِ اما هذه الصفات فلا تجعله سائغًا وجيدًا للشرب ما لم يداخله الهواء فيصيره عذبًا لا يثقل على المعدة ومما يشير صريحًا على انتشار الهواء فيهِ طعمه العذب وتصاعدُ نفاخات صغيرة الى وجههِ عند تسخينهِ فاحسن الامواه والحالة هذه امواه الجداول والانهار الجارية والامطار اذا التقطها الانسان بعد انهمالها بقليل من الزمان لتنقيها حينئذٍ من مواد مضرة تلتقطها عند انصبابها على الارض وحذار من الامطار التي تصب على سطوح يغشيها الزنك او الرصاص ومن الماء الجيد امواه العيون التي تجري على الرمال فانها تتمكن من امتصاص الهواء وانتزاع ما يمازجها من الملوحات اما امواه الابار والحياض الراكدة فلا تكون في الغالب جيدة لامتزاجها بمواد مالحة وقلة تداخل الهواء فيها واذا صفي الماء فمن الاجدر ان يحرك الاناء قبل الشرب ليدخله الهواء الذي يزاوله عند تصفيته

واما الينابيع العميقة الاصل فيشاهدُ ماءها بارداً في الصيف وسخناً في الشتاء ولكن اذا قطعنا النظر عما يؤثر فينا من العلائق الجوية وجدنا درجاتها توشك ان يساوي بعضها بعضاً صيفاً وشتاء ذلك بمعدل ما نشعر بهِ وقت الربيع فهذا النظام تحير فيه العقول وإحكام يلفي الدهشة ويورث العجب فالجو قناة تكتنف الكرة وهو على هيئة بديعةٍ من الاتقان يتبذخ الماء فيهِ بخاراً ثم ينحدر نداء ومطراً فيسقي الارض مدراراً ولا يفقد من سجيتهِ شيئاً تعتوره التحولات الكثيرة ثم يرجع الى ما كان عليه فمنه ما يتبخر ومنه ما تمتصه الارض ومنه ما يستقر في اوشال اعدتها الطبيعة فينفجر ينابيعاً عليها تتوقف حيوة الطبيعة ومنه ما يرجع الى مستقره الطبيعي ضمن البحار فهذه حكمة الله : فانه قد خلق الكائنات بقدرتهِ واحكمها بعلمهِ ودبرها بحكمتهِ واودعها من النظام والاحكام والمحاسن العجيبة الغريبة ما يبقى معه الانسان متعجباً حيران باهتاً لا ينطلق لسانه الاَّ بالتسبيح فسبحانك اللهمَّ فانك على كل شيء قدير «انتهى»



المقالة الآتية لاحد فضلاء اعضاء الدائرة المومأ اليها

عاداتنا

ايها السادة ان التنديد بالعادات العامة المستهجنة اقوى ذريعة الى العدول عنها واكبر باعث على اصلاحها واستبدالها بعادات يهدي اليها العقل والصواب وتقتضيه الراحة في العمل بواجبات الهيئة الاجتماعية فاستطراق امر وتكرار الافعال فيه من شانهما اغماض عين البصيرة عما يكون فيه من الشوائب والمضار. وتنبيه الافكار اليها يفضي الى اصلاح المسعى وتتبع ما يعود على الهيئة الاجتماعية بالراحة والنفع. وقد سلك هذا المسلك كثير من القدماء والمتاخرين مندددين ببعض عادات اقوامهم المستهجنة. ولنا بذكر الطرطور مصداق للقول. وقد خطر ببالي على ما بي من جمود الفكرة ان ابين في هذا المحضر الحافل ما قد تمثل لي بالملاحظة والاستقراء من بعض عادات وطننا انهُ مستهجن متعب لا نفع فيه او هو مانع من تقدمنا في الثروة وسعة اليد فاحببت ان اخطر على بالكم لعلي اصيب ويصوب بعض القوم قولي فيكون نفعاً لهم وقدوة لغيرهم فيحصل المقصود من هذا السبيل الجميل

ليس من مقصدي هذا تعقب العادات المخالفة للدين او الاداب بل المخالفة للصواب والمشوشة لنظام الراحة والمجحفة بالثروة وتقدم الصناعة. قد مرت بنا الاعياد السنوية ولم نسلُ ما جرت وراءها على الناس من الربك العظيم فمن عاداتنا في الاعياد لاسيما عيد الميلاد وراس السنة وعيد الفصح تبادل الزيارات العديدة فنعم الامر بذاته ولكن ما اشد كلفة العادة ومؤونة الاصطلاح الجاري في زيارات الاعياد ولاسيما القيام بهذا الواجب في ايام قليلة بعد العيد. فقلَّ فينا من لم يحكم عليه السنن الاصطلاحي الباقي في مدة هذه المواسم اتمام خمسين او مئة زيارة. ويلزم بعضهم اكثر من ذلك فعوضاً عن ان يقضي اصحاب الوجاهة في مدينتنا ايام الاعياد بالراحة والسكينة والهناء في عيالهم تراهم يسعون جرياً من باب الى باب. ومن حي الى حي. مؤدين التهاني بما امكن من موجز الكلام متدافعين بقصر الحين وتدارك الزيارات ضغطاً فتقدم لهم

الحلويات والقهوة ونحوها فمن سولت لهُ نفسه تناول شيءٍ منها في بعض البيوت مجارة لمزوريه عاد الى محله مساء وقد اصابته التخمة . وسيدات البيوت بدل ان يكنَّ مستريحات في عيالهنَّ يحكم عليهنَّ بقتل الوقت سحابةَ ذلك النهار في استقبال الزائرين فلا يبقى لهنّ ولا لازواجهن يسير من الوقت لتناول الطعام ولا للراحة لازدحام اقدام الزائرين فيصبح والحالة هذه يوم العيد يوم تعب ونصبٍ في دور الوجهاء بدل ان يكون يوم مسرة وهناء . فاي حكمة تحكم بمثل هذا الصنيع واي تمدن يامر بهِ . وكاني بقائل ان في مثل هذه الزيارات وسيلة لتبادل عواطف الحب والولاء وتجديد علائق الجمعية البشرية وتريد اسباب الحضارة بمجالاة الخواطر والمفاكهات الودادية . ولكن ليت شعري انَّى ينفسح الوقت لشي من ذلك خلال زيارات تتصل بدايتها بنهايتها وسلامها بوداعها . لاجرم ان الزيارت وسيلة لما تقدم الا ان مثل هذه الزورات المتنفاة ليست مما نحن في صدده فان مرادنا هو ان نكون على هينة وسعة من الزمن افما ترون ايها السادة انهُ يجمل بنا ان نعتاض ايام الاعياد الضيقة بارسال رقاع الزيارة معجلة الى جميع الاصدقاء ومن جرت العادة بازديارهم ثم تجرى الزيارة بالذات على مهل في ادائها وسعة في قضائها مدة طويلة . اي من عيد راس السنة الى الفصح ومن الفصح الى ايام الخريف . فيتاتى في اثناء هذه الشهور الطوال ايفاء تلك الزيارات الشتى عن ارتياح في النفس وارتياد موارد النفع كما مرَّ آنفًا . وما هذا بالامر العسير اذا ابتدأ الاعيان والوجهاء بالجري عليه المرة بعد الاخرى فعليكم يا اولي الوجاهة ان تتقدموا في اصلاح اسلوب هاته العادة ولا شك ان السواد الاعظم يتابعكم عليه اقتداء واقتفاء . وفي الامثال «لولا الوئام هلك الانام» اي لولا ان الكرام واهل الخير يحكيهم غيرهم ويتشبهون بهم لم يعم صلاح الحال

ومن سوء عاداتنا ايضًا زيادة المصابين مصابًا . اريد بذلك اعتيادنا تقديم المشروبات والنارجيلات (الاراكيل) والسيكارات في عيادات التعزية بفقيد والاشراف على مريض حال كون اهل الفقيد او المريض على غاية من الهم والبلبال فيزيدهم العائدون ارتباكًا بما جرى عليهِ الاصطلاح الفاسد . فيزيدون المصاب مصابًا لاسيما اذا كان المصابون على غير سعة من العيش . والامر واضح جلي ونعم ما جرت بهِ العادة بنبذ مثل هذه التكليفات وقت الدفن او ما ترون ان اتباع عيادة

التعزية والعود لعيادة وقت الدفن بعدم تكليف المصابين شيئاً هو ادنى الى الصواب وادعى للراحة والتمدن . فعلى الوجهاء الابتداء بذلك فالغير الوجهاء لا يبتدئون به ضناً بكرامة نفسهم وخشية من المواخذة

ومن سوء عاداتنا ايضاً خالل البعض بتربية اولادهم . وهذ على قسمين صحي وادبي فمن الاول افراط بعض الوالدين بالوقاية لاولادهم حتى تصبح الوقاية نفسها تهلكة لصحتهم فيحبون ترفيههم ووقايتهم من كل تعرض للهواء او للبرد او الحرارة فيصبح الولد عرضة للامراض كلما تعرض لشيء من التغيرات الجوية . ومما يستغنى عن البيان ان ممارسة الولد قواه تزيده قوة ونمواً واعتياداً لعدم التاثر في التغيرات الجوية المعتد له . والراحة الزائدة تضعف قواه وتعسر هضمه وتجحف بنموه . فالاولى عدم الافراط بترفيهه ووقايته وتركه يمارس قواه ولو متعرضاً لبرد او حر معتدلين وبعضهم على عكس ما تقدم في التفريط فيترك اولاده يخرجون من البيت كلما شاءوا ويتناولون ما شاءوا من الاطعمة والحلويات والاشربة ولا يصدهم شيئاً مما يطلبون فيسوقهم بذلك الى المضرة بصحتهم اكثر من الاولين . والصواب في الاعتدال

واما القسم الثاني فنقول به استطراداً فان بيننا من قلما يهمه تربية اولاده على الادب والاحتشام والدين . مع ان الولد ما يكون عليهِ غالباً طفلاً يصبح فيهِ ملكة راسخة وهو يافع ولا اقل من ان تبقى عليهِ اثاره الى مماتهِ وان غشى حسن تربيته شي من طيش الشباب او سوء المعاشرة الاَّ ان اصل التربية يعود يتغلب على ما طرأ عليه . وعليهِ كانت التربية للصغير في الصغر بمنزلة الاساس لبناء سيرته . فان كان الاساس متعيباً ازدادَ بناء السيرة تعيباً . وان كان سالماً من العيب قوياً متيناً لا يخشى عليهِ من السقوط وان انشق قليلاً وقتاً ما . فهذه الاعتبارات الموجزة ترينا ما افظع غلط من يتركون اطفالهم يقولون ويفعلون ما يخل بالادب . واذا تقدموا في الصبوة تركوهم يعاشرون من لا تحمد عشرته او يخرجون الى الازقة فيلعبون مع اولاد ساء ادبهم او يسمعون اقوال الشبان المنسودي السيرة . واذا شبوا لم يكترثوا بامرهم ولم يرقبوهم ليعلموا من يعاشرون . ولا اين يترددون ولا ماذا يصنعون ولا يمنعوهم من مسامرة من قلَّ ادبهم . ولا يصدونهم عن حضور الملاهي والملاعب والمحاضر السيئة ولا يلتفتون الى اختيار مربين او اظآر (مرضعات) او خدام ذوي سيرة حسنة ولا يامرونهم

باتمام فروض دينهم . ولا يمنعونهم المطالعة في الكتب الكفرية . او المجونية فتفسد عقولهم ونفوسهم فكم وكم من امثال هولاء اخربوا بيوت والديهم وكانوا لهم نقمة . بدلاً من ان يكونوا نعمة . ومصاباً مكان ان يكونوا لهم قرة عين وسلوى . هذا عدا ما يتصل من فسادهم الى اداب الوطن وما يجلبونه عليه من العار والبوار . فما الاولاد الان ايها السادة الاَّ رجال المستقبل فان حسن ادبهم رجي منهم رفاه الوطن بجملته وراحته وسعادته وان ساءوا ادباً كانوا مصدراً لفساد عيالهم وبلادهم وعلة شقائها وخرابها واذا نظرنا الى حالة اوربا تبين لنا صحة هذا المقال وايقنا بان المبادي الفاسدة مع عدم الاكتراث بالتربية للصغار اوجدت الاباحية والاشتراكية والعدمية الى اخر هذه الشيع التي تقلق الان راحة اوربا وترميها في وهدات هائلة فالمبادي الفاسدة والمضلة ساعية جرياً للدخول في بلادنا مع تنقيه ولادنا وتعليمهم لغات الاجانب الكثيرة فيها كتب الخلاعة والكفر والفساد فان لم يتدارك حسن التربية هذه الشؤون كما تداركها بعض الاورباويين بتربية اولادهم وتثقيف شبانهم والاحتياط من سريان الفساد اليهم عمت المساوئ البلاد وآل بنا الامر وبكل من لم يحسن تربية بنيه الى الشقاء وتنغيص العيش وتبديد المال وسلب الراحة والسقوط في اسواءِ حال . وليس دواء لهذا الداء الاحسن التربية والسهر على سيرة الشبان ومنعهم من كل ما يظن انهُ يوصل اليهم مبادي الفساد . واغراؤُهم باتمام فروض الدين الذي هو اكبر وازع عن الشر واقوى داع الى الراحة والتمدن .

ومن سوءِ عاداتنا ايضاً تشبه المعسرين بالموسرين والصغار بالكبار ومزاحمة ذوي الطبقة الثانية من الناس باعتبار حالتهم المالية ذوي الطبقة الاولى ومحاكاة اصحاب الطبقة الثالثة الثانية من جهة تشييد الدور والتانق في الاثاث والملابس والازياء وما اشبه فنرى كثيرين من الاوساط يحاولون تبهية بيوتهم وتهيئتها بهيئة دور الاغنياء تجيداً وتزييناً برياش فاخر واثاث ناضر يعلو طاقتهم ولا يناسب حالتهم ويباءمون وعيالهم اولي الثروة في ضروب الملبس واساليب الزي مع ان اولئك ينفقون عن سعة وهولاء يسرفون فيما لا يكاد يسد عوز عيالهم وليتهم لم يقدموا احياناً على استدانة المال لذلك ويصرفوا اكثر ما لهم على بناء دار واقتناء اثاث او عمل ملابس وازياء ولا يبقى لهم ما يعيشون بهِ في حالتهم التي تصبح اعلى منهم . وقد اضر ذلك ويضر بكثيرين وافضى بكثير

من البيوت العامرة الى الخراب والدمار ان الله ايها السادة جعل بحكمته غير المدركة حالة الناس المالية متفاوتة في بعضهم دون بعض تفاوت القوى العقلية والجسمية لقيام العمران ونظام الاكوان . وكما ان نحافة الجسم ليست عارًا ولا مذلة بل العار والمضرة والمعرة فيما اذا الانسان احمل قواه العقلية والبدنية فوق طاقتها . كذلك ليس من العار او المذلة ان يعيش الانسان قانعًا راضيًا بما قسم الله له من الرزق والعيش الدنيوي مع جده في اكتساب الرزق بالطرايق العادلة . بل العار والمذلة والمضرة ان يلقي على عاتقه احمالاً باهظة تشبهًا بالسراة والاغنياء فيصبح معدمًا مضطرًا ان يبيع البيت لقضاء الدين او بيع الحلى والرياش والفراش احيانًا ليشتري بثمنه لعياله طعامًا افما كان الاجدر به ان يكتفي من البداية باللازم اللائق بحاله فلا يلجأ الى بيع ما يحتاج اليه لشراء ما لا يحتاج اليه « الا فليتامل المتاملون »

ومن سوء عاداتنا وما يضرنا كثيرًا استعمال المصنوعات الاجنبية حال كوننا يمكننا الاعتياض عنها على احسن منوال بمصنوعات وطننا نؤثر ثوبًا منسوجًا في البلاد الاجنبية على ثوب حاكه اهل بلدنا وان كان هذا احسن وامتن واقل ثمنًا من ذلك المنسوج الغريب نبيع اوربا الدرهم من حريرنا باقل من قرش واحد اي بما لا يساوي خمس الفرنك ثم نبتاعه منها بعد النسج بفرنكات ونزجي اليها رطل الصوف او القطن بابخس الاثمان ثم نشتريه منها منسوجًا باغلاها وقس على ذلك اشباهه في باقي المصنوعات والحاجات البيتية . فهل من يجهل تاثير ذلك تضييعًا لثروة البلاد وتضييقًا لسعتها وغناها . الا انا والحمد لله قد تقدمت الصنائع وترقت المعارف في ديارنا وخصوصًا النساجة فلنا منسوجات يعجب منها الاوربويون انفسهم ويفضلونها على منسوجاتهم ليس من جهة المتانة فقط بل من جهة الطلاوة ايضًا ومع هذا ترانا متنافسين متهافتين لا نجد من انفسنا صبرا عن احراز السلع الافرنجية دون مبالاة بتجارتنا وصناعتنا ان تذهب وثروة بلادنا ان تنضب ولو تنازلت السيدات المنافسات الى استعمال المنسوجات البلدية المعجبة ملبسًا واثاثًا لكان في ذلك نفع كبير للبلاد وصناعة البلاد

ايها السادة ان اصطلاحات الاقوام المائلة لهذه التي ذكرت لا يدخلها ولا يبطلها الا الوجهاء الاماثل امثالكم فاذا اختار علية القوم شيئًا تبعهم فيه الجمهور على علاته . فعلى فضلكم اذن السعي لاصلاح هذه العادات التي اوجزت القول فيها ورجائي ان يفوت

كلامي هذا الواقعي حد الاستحسان والاستصواب الى الجد لاجرائه من طريق الاذعان وهذا لا يكلف المرء غير ارادته بل يكفيه مؤونة تكاليف كثيرة لا حاجة اليها وفيه شي من الاقتصاد الحسي والمعنوي اللازم لكل صنف من الناس فضلاً عما يجر من النفع للوطن العزيز الذي نتمنى له الرفاه وسعة الحال وسرعة المسير في طريق التمدن والفلاح بظل الحضرة السلطانية الظليل ايد الله اريكة ملكها وامتع رعاياها بعدلها ومرحمتها وبعناية ولاتنا الفخام وهو اكرم مسؤول واعظم مأمول «انتهى»

﴿ خطبة ﴾

﴿ في اصل الانسان ﴾

(وابطال مذهب الكون والاستحالة)

لحضرة الاب الفاضل الخوري بولس عواد احد كتاب القصادة الرسولية
واعضاء الدائرة العلمية

ايها السادة الادباء والطلبة النجباء

اذا أجالَ الحكيمُ نظرَ اعتباره في ما يكتنفهُ من المحسوسات والمعقولات ولاحظَ تصرُّفَ الانسان فيها بقوَّتهِ الطبيعية إدراكًا واختيارًا وما يقعُ له عندها من كثرة الخبطِ والاعتساف في مطارح عقله ومطامح ارادتهِ تبينَ بالضرورة حاله من ضعف الآراء وفساد الاهواء واستشفَّ من وراء ذلك شدة افتقاره غالبًا في تمييز الحق من الباطل وسلوكه سننَ الرشاد في احوال المعاش والمعاد الى الاستضاءة بنور علم فوق علمهِ وسنة فوق سنتهِ فلم يعجب مما يعرض لكثيرٍ من الناس من المغالط الفاحشة والاوهام المستنكرة ولذا لم يكن لعقلاء ديارنا هذه المشرقية ان يعجبوا مما يطلعون عليهِ او يسمعون بهِ من المذاهب الفاسدة والاراء المضحكة التي قد انتحلها اهل الكفر والخلاعة في بعض الانحاء المغربية ويحاول بعض من شايعهم في هذه الانحاء ممن قد ارخى الجهل عليهم سدُولهُ او ضرَبَ الفسادُ فوقهم قبابهُ بثها بيننا إفسادًا لما بقي عند ابناء اوطاننا

هذه من الاخلاق السليمة وتوسلاً الى ما يقصدون من ورائها من الاغراض الوخيمة وقضاء بعض الاوطار الذميمة . ومن ذلك ما تصدّى بعض هولاء في العام الماضي لنشره هنا من اسخف المذاهب واقبحها في اصل الانسان وهو مذهب الاستحالة الدروينية

ولما كنا مع علمنا اليقين بما لا يزالُ عليهِ اكثر اهل هذه الاصقاع من سلامة الفطرة وشدة الاستمساك بعرَى الدين وردّهم لذلك مثل هذه المنتحلاتِ الماسدة على اهلها نرى ان رياح هذا العصر قد جعلت تعصفُ في افئدة بعض الضعفاء من شبان بلادنا هذه مع قلة بضاعتهم في العلم وكثرتها في الاعتداد والوهم وكان اصحاب هذا المذهب الباطل قد ستروا قباحة وجههِ بنقابِ العلم فافتروا بذلك على العلم واهله كما افتروا على شرف الانسان واصلهِ وكانت جمعيتنا هذه لم تلقب بالدائرة العلمية الا لانّ من اخص مقاصدها رفع منار العلم والذودَ عن شرفهِ ونصر المذهب الحقِ بهِ ودفع كل غوايةٍ او مفسدةٍ عن هذه الاوطان العزيزة بما نحسبه خدمةً في سبيل العلم والدين والوطن تعين علينا الكلامُ على حقيقة اصل الانسان ورد اخص ما عرض فيها من المذاهب الفاسدة وكشفُ النقابِ عن حقيقتهِ وبيانُ فسادهِ بالادلة القاطعة والحجج الساطعة غضباً للعلم أن تتلاعبَ بهِ ايدي الفساد وضنّاً بالحق أنْ تعبث بهِ ايدي الباطل وصوناً لهذا الوطن العزيز عن مثل هذه الغوايات والمفاسد الوبيلة المصادر والعوائد . غير انهُ لمّا كان الزمان لا يسمح لنا بالاطالة في هذا المقام لزم ان نجتزئ في ذلك بالاجمال عن التفصيل ونقتصر على اخص الادلة النظرية مراعينَ في ايرادها جانب الايجازِ والتحصيل فنقول

من الناس من افضى بهم شدة كفرهم وفساد اخلاقهم الى ان اثاروا هرباً على الله عز وجل تخلصاً من تكاليف شرعه واحترامهِ واقامة حدوده واحكامه غير انهم لما لم يستطيعوا اعدامه تعالى بانكار وجوده من وجهٍ عمدوا الى اخراجه من العالم وتمزيق كتب وحيهِ المقدسة وشنوا الغارة على اشرف ما يشاهد من مبروآتهِ وآثاره واعجب ما يدل على حولهِ واقتداره وهو الطبيعة الانسانية فذهبوا في حقيقة اصلها ما شاءوا من المذاهب العاطلة والآراء الباطلة وابتدعوا لمذاهبهم هذه من عند انفسهم اصولاً متناقضة وادلةً غير ناهضة شادوها على اساس من العلم معدوم واسندوها الى عمادٍ من الحق موهوم وانكروا من ورائها التدبير والعناية الالهيين ومنعوا حقيقة الاعتقاد والمعاد والثواب

والعقاب وكلّ ما يتفرّع على ذلك من العقائد الايمانية والحقائق الدينية واخص هذه المذاهب اثنان

الاول القول بالكون الذاتي اي بتولد الحي من الانسان وغيره عن طبيعة الجماد بمجرد قوتها الخاصة وهو مذهب عارٍ عن كل ثبتٍ مجرد عن كل سندٍ ياباه صريح العقل ويقضي بفساده صحيح النقل ولنا في ابطاله هذا ثلاثة مسالك

المسلك الاول أنه لو كانت الطبيعة الجامدة هي العلة الموجدة للموجودات الحية لكانت فاعلاً موجبًا لا مختاراً اذ ليست عاقلةً والاّ لكانت حيةً وقد فرض كونها جامدة فتكون جامدة حيةً هذا خلف فلا بدّ اذاً ان تكون فاعلاً موجبًا وايجابها حينئذٍ اما لذاتها او لغيرها فان كان لذاتها لزم أنّ كل جمادٍ يصدر دائمًا حيًا ما لان الفاعل الموجب لذاته يستحيل تخلف مفعولهِ عنه باجماع الحكماء وهذا لا قائل بهِ وباطل بالضرورة . وإن كان لغيرها كان اسناد الحوادث الحية اليها دون ذلك الغير تحكمًا بحتًا . ويلزم عليهِ كون تخصيصها ايجاد تلك الحوادث بوقتٍ دون آخر ترجيحًا بلا مرجح وهو ممنوع باجماعهم ايضًا بخلاف ما اذا اسندت الى ذلك الغير الذي يجب ان يكون مختاراً والا لتسلسل فلا بدّ اذاً من اسناد كل موجود حي الى فاعل مختار

المسلك الثاني أنّ الفاعل الطبيعي لايفعل الا على وتيرة واحدة فلا يصدر عنه الا واحد اذ انما يفعل بصورته التي بها هو هو وهي واحدة فقط وهذا مشاهد في جميع الفواعل الطبيعية وبناء عليهِ قرّر الحكماء ذلك الاصل المشهور وهو « لا يصدر عن الواحد الاّ واحد » وقال ذلك الفيلسوف المنقطع النظير القديس توما الاكويني في الفصل الرابع من المبحث التاسع عشر من كتاب الخلاصة اللاهوتية ما نصه « ان الفاعل الطبعي لا يصدر الا مفعولاً واحدا فان الطبيعة تفعل على وتيرة واحدة ما لم يحل دون ذلك مانع لانها تفعل من حيث هي كذا فما دامت كذا لا تفعل الا كذا لان لكل فاعل طبعي وجوداً محدوداً اه » فلو كانت طبيعة الجماد فاعلاً للحيوة لما صدر عنها الا حيّ واحد ولكن في العالم احياء مختلفة متباينة في ذواتها وطبائعها كالحي النامي والحي الحساس والحي الناطق فلا يمكن اذاً ان تكون علة طبيعة الجماد علةً للانسان وغيره من الموجودات الحية

المسلك الثالث أنّ الحكماء المدققين قد أطبقوا على ان كل فاعل يفعل ما يشبهه

والمراد ما يشبهه اما بطبعه وذلك في الفاعل المجانس لمفعوله كما يلد الانسان انسانًا والنبات نباتًا والنار نارًا او بصورته العقلية وذلك في الفاعل الغير المجانس لمفعوله كما يشبه البيت الصورة الحاصلة في عقل البنّاء لكن الحيّ لا يشبه الجماد لا بطبعه لان طبيعته غير طبيعته كما هو ظاهر ولا بصورته العقلية لان الجماد ليس بعاقل فليس لهُ صورة عقلية فقد وضح اذًا أنَّ الحيّ لا يمكن ان يكون ناشئًا عن الجماد وأنَّ القول بالكون الذاتي باطل بالضرورة والمثبت لهُ مراغمٌ للحس ولاجماع الحكماء المدققين وأنه لا بد من اسناد الانسان وغيره من الاحياء الى المبدع المختار الذي يفعل ما شاء متى شاء والحاصل في عقله الازلي صور جميع الموجودات الصادر على شبهها كلُّ ما كان او سيكون او هو كائن

والمذهب الثاني القول بالاستحالة وسماه بعض الفضلاء مذهب النشوء والارتقاء وهو زعم بعضٍ أنَّ الانواع المختلفة المشاهد في هذا العالم ناشئة عن اصل واحد بطريق التدرج والارتقاء اي تدرج أفراد ذلك الاصل من طورٍ الى طورٍ بمرور ازمنة متطاولة وارتقائها يسيرًا يسيرًا في مدارج الكمال على اختلاف وتفاوت في ذلك حتى بلغت هذه الاطوار العالية المشاهدة عليها الآن وقد فرعوا على قولهم هذا أنَّ الانسان غير مخلوق من الله ابتداء بل انما اصله حيوان اعجمُ استحال متدرجًا اليه بتمادي الزمن وقد جعل بعضهم هذا الحيوان القرد وغيرهم غيره من اقرب البهائم الى الانسان والقائلون بذلك يسمون استحالية وقد لبثوا ازمانًا ملتمسين علة لاستحالتهم هذه ومترددين في تعيينها حتى جاد الزمان بدروين الشهير فقضى بحكمته الباهرة هذا الوطر المهم وعين باختياره العالي تلك العلة التي طالما تشوقتها النفوس وسماها الانتخاب الطبيعي على سبيل التمثيل في زعمه بالانتخاب الصناعي الذي بهِ يحدث الانسان بصناعته بعض التغيير في بعض افراد الحيوان والنبات ولذا قد اشتهر هذا المذهب الدروبني ولنا في ابطاله خمسة مناهج

المنهج الاول ان هذه الاستحالة لو قدرت في نوع لكانت اما واجبة لذاتها او ممكنة لذاتها فان كانت واجبة لذاتها لزم وقوعها في كل فردٍ من افراد ذلك النوع بحيث لا يمكن بقاء فرد لهُ دون استحالة لان العارض الواجب لذاتهِ في نوعٍ لازم لحقيقة ذلك النوع الكلية واللازم للكلي كليٌّ منتشر بالضرورة في جميع افراده كانتشار الضاحكية في

كل فردٍ من افراد الانسان فيلزم تلاشي ذلك النوع بالمرة وهذا خلاف ما يزعمه الاستحالية من وقوع الاستحالة في بعض الافراد دون بعض لاجماع طرفيها عندهم في الوجود كالقرد والانسان عند من يجعل منهم اصل الانسان قردًا وان كانت ممكنة لذاتها فلا بد لها من علة فاعلية تخرجها الى الفعل وترجحها في بعض الافراد دون بعض لان اجماع الفلاسفة منعقد على ان الممكن لذاته محتاج لذاته الى فاعل وهذه العلة الفاعلية لا بد ان تكون شيئًا وجوديًا لان كل شيءٍ انما يفعل من حيث هو موجود بالفعل وهذا الذي اراده الفلاسفة بقولهم في ذلك الاصل المشهور لا يصدر شيء عن لاشيء . لان الانتخاب الطبيعي الذي جعله دروين علةً للاستحالة ليس شيئًا وجوديًا والا لكان موجبًا لخلو الطبيعة من القصد والاختيار الحقيقي فيلزم وجوب الاستحالة وهذا قد ابطلناه فبقي ان هذه الاستحالة مستحيلة

المنهج الثاني أنَّ هذه الاستحالة لا يتصور حصولها الا بتغيير ما اما في عوارض النوع او في ذاتياته فان كان الاولَ لم تكن الاستحالة نوعية لان تغير الاعراض بالغًا ما بلغ لا يمكن ان يوثّر تغييرًا في الذات من حيث هي ذاتٌ وهذا واضح غني عن البيان وهو خلاف ما فرضهُ الاستحالية من ان الاستحالة نوعية . وان كان الثاني لم تكن الاستحالة تدريجية لان لكل نوع ماهية هو بها هو فان ماهية الانسان التي هو بها انسان هي الحس والنطق فما بقيت هي هي بغير زيادة ولا نقصان بقي النوع هو هو وان لحقها ادنى تغير بزيادة جزء او نقصان جزء تغير النوع حالاً وهكذا لا يمكن ان تكون استحالة نوع الى نوع آخر تدريجية بل يجب ان تكون دفعية وهذا محال ايضًا لان كل فاعلٍ انما يفعل ما يشبهه كما تقدم فلا يمكن اذن لفرد من افراد نوع ان يلد فردًا من افراد نوع آخر فالاستحالة النوعية اذن مستحيلة

المنهج الثالث انه لو كان الانسان ناشئًا بالاستحالة عن نوع اخر لكانت هذه الاستحالة حاصلة في نفسه وجسده لتركب حقيقتهِ النوعية من حس الجسد ونطق النفس لكن لا يمكن تصور الاستحالة في النفس لانها لا تعقل الا بزيادة او نقصان في كلا الطرفين او في احدهما والنفس بسيطة كما هو ثابت عند الحكماء والبسيط لا يقبل زيادةً ولا نقصانًا فهو اما يوجد كله دفعة او ينعدم كله دفعة فلو كان الانسان ناشئًا بالاستحالة عن بهيم قردًا او غيره للزم القول بالتناسخ بينهما فاما ان تكون نفس القرد مثلاً ناطقة او ان

تكون نفس الانسان غير ناطقة وكلاهما بين البطلان

المنهج الرابع انهُ لوكان الانسان ناشئًا بالاستحالة تدريجًا عن بهيم للزم ان يكون بينهما في الاقل حيوان اوسط غير خالص لاحدهما فيكون بين الانسان والقرد مثلاً حيوان لا قرد صرف ولا انسان صرف او قرد انسان ولكن العلماء الزولوجيين والجيولوجيين لم يقفوا لذلك على عين او أثر مع كل ما دققوا فيه النظر كما هو ثابت في كتبهم ولما اعترض بذلك على الاستحالية فزعوا الى القول بانه سيكتشف على ذلك مع تمادي الزمن وهكذا اعترفوا ان مذهبهم هذا مبني على ماضٍ معدوم ومستقبل موهوم يسالون الطبيعة من ورائهِ فتحا ويلتمسون لهم بما يتشبح في خيالهم نجحا ولكنهم يسالون غير مجيب وينفخون في غير ذي لهيب

المنهج الخامس ان القول بالاستحالة منافٍ للقول بوجود الله وخلقهِ الاصل الاول مما لم يستطع الدروينيون الى انكارهِ سبيلاً فقد ثبت عند جمهور الفلاسفة المحققين ان الله غير متناهٍ بالضرورة والا لما استطاع ان يخلق شيئا وان عدم تناهيه يستلزم كونه مستجمعًا في ذاته لجميع الكمالات بحيث انه لو فاته واحدٌ منها لم يكن الهًا والدروينيون باسنادهم نشوء الانواع وتمايزها الى مجرَّد الانتخاب الطبيعي قضوا بنفي تدبير الله لها وعنايتهِ بها وبعدم تعلقها القصدي بهِ ولا يخفى ان تدبير الله للاشياء وترتيبه اياها بعنايته وتعلقها بهِ قصدًا في انواعها وافرادها لمن اعظم الكمالات واوجبها لذاته لدلالتها على قدرته الشاملة وخيريته الكاملة فلو لم تكن حاصلة لهُ لم يكن غير متناهٍ في كمالهِ فلم يكن الهًا ولا خالقًا للاصل الاول وهذا خلاف ما اعتقدوه

وبهذا القدر الذي اوردناه عليكم ايها الادباء والالباء من الحجج الدامغة والادلة البالغة كفايةٌ لبيان أن الكون الذاتي والاستحالة الدروينية غير ممكنين فضلاً عن ثبوتهما وان القول بهما قول بمحالاتٍ شتى ومراغمة للمبادىء الضرورية والادلة اليقينية والاصول الفلسفية بل والاكتشافات العلمية التي شاء اصحابهما الاستظهار بها وان ذلك الانتخاب الطبيعي الذي اسعدت الاقدار دروين على الاكتشاف عليهِ والاهتداء اليه اسم بلا مسمى ووهم بل سهم اخطا المرمى بل التوى عليه فاصمي لانهُ زعم انهُ اعتمد فيه على برهان التمثيل وحكم بوجوده في الطبيعة قياسًا على وجود الانتخاب الصناعي في الانسان وهذا ناقض عليه قوله لا محالة وملزم لهُ لو تدبر بالعدول عن القول بالاستحالة فان

الانسان مهما افتنَّ بصناعتهِ لا يقدر ان يعدو الا حالة العرضية وهذا امر مشاهد غني عن البيان فان الكلب مثلاً مهما عرض لهُ من التغيير والتحويل في كمهِ وكيفهِ بصناعة الانسان العاقل وحذاقته لا يتصل الى تغيير حقيقته النوعية فلا يبطل ان يكون كلبًا وقس عليه سائر ما يعرض فيه بعض التبديل والتحويل العرضي من النبات والحيوانات الداجنة كالفرس والهر ونحوهما فلو تنزلنا عن منع مثل هذا الانتخاب النطقي في الطبيعة الغير الناطقة العرية عن كل قصد وإيثار وسلمنا قياسها في ذلك على الطبيعة الانسانية لما ساغ لنا بعد ذلك القول بالاستحالة النوعية من وجهٍ بل وجب القول بحكم المبادىء المنطقية والاصول الفلسفية والحقائق الاولية الضرورية ان الانسان لا يمكن ان يكون ناشئًا بطريق الكون الذاتي او الاستحالة بل انهُ مخلوق من الله ابتداءً على صورته ومثالهِ وخاضع لعنايته وتدبيره وصائر الى عقابهِ وثوابه وسيعلم الكفرة حين تذهق النفوس ويصلون نيرانِ العذاب أنّ من الله المبدأ واليهِ المآب



تربية البنين في مذهب المتأخرين

هذه جملة في تربية البنين عثرنا عليها في احد اعداد (١) المجلة الموسومة « بالتمدن الكاثوليكي » أثرنا ترجمتها الى العربية تعميمًا لفوائدها ونشرًا لما اشتملت عليهِ من المبادي الصحيحة التي يفتقر اليها كل مَن ترتَّب عليهِ الاهتمام بتربية البنين وقد راعينا اصلها الايطالي دون ان ناتي بادنى تغيير او تصرف في عباراتها وفاءً بحقوق الترجمة . وهذه هي :

عد ا كلٌّ يعلم مع الأسف الانحطاط الادبي الذي صار اليه النوع البشري في الايام المتأخرة على انه في معرض البحث عن اسباب هذا الانحطاط او تعيين مَن يترتب عليه الذنب في هذا الشر الكبير ترى كلَّ واحدٍ يحاول التملُّص منه والقاءه على عاتق غيره فالحكومة تلقيه على كاهل الوالدين والوالدون على مناكب الحكومة (٢) والصحيح ان كلا الطرفين سوآء في الذنب امَّا الحكومة فلأنها لا تُزيح اسباب هذا الفساد المشتهرة الناشئة عن الاجتماع بل تؤيدها وأمَّا الوالدون فلأنهم كثيرًا ما يُغفِلون تربية بنيهم فيعملون بذلك اكثر من سواهم على خراب اداب الشبيبة . ولمَّا كنا قد المعنا في احد اعداد مجلتنا الماضية الى اسباب ذاك الانحطاط التعيس المشتهرة وجب ان نأتي هنا على ذكر شيء من اسبابهِ البيتيَّة او الخاصَّة التي هي أدعى الى الخراب من تلك لما انَّ سلطان العائلة هو أسطى على خواطر الشبيبة من سلطان الاجتماع المدني .

وأوَّل شائبةٍ فظيعة تتخلَّل تربية البنين لهذا العهد انما هو تركهم ينشأون في ظلّ الحريَّة الذميمة دون ان يروَّضوا ويكبحوا بلجام ذلك السلطان الشريف الصادر عن الله والمستقرّ في الوالدين ممثّلهِ على الارض الذين لاشتراكهم من وجهٍ بالأبوة الالهية من حيث معاونتهم للخالق في ايجاد موجوداتٍ ناطقة لذلك يؤتيهم سلطانه نفسه

(١) عدد ٨٤٧ في ٣ ت اسنة ١٨٨٥)

(٢) المراد بالحكومة هنا حكومة ايطاليا كما لا يخفى .

فيكون في العيال كالملك في مملكتهِ والحبر في كنيستهِ فهم من العائلة بمنزلة العقل والقلب من الانسان فابو العائلة هو العقل الذي يُدبِرها والأمُّ هي القلب الذي يوليها حركة المحبة والبنون هم الأعضاءِ التي تتحرَّك بحسب ذلك التدبير ومقتضى تلك الحركة وعليهِ فحيث كان الوالدون خبيرين بإقرار سلطانهم هناك يملك الترتيب ويسود الاتفاق والسلام اما حيث كانوا تحت طيّ الحرّية ومجاراةً للمبادي والاصطلاحات الحديثة لا يُريدون اولا يعرفون ان يذلّلوا اعناق بنيهم لنير السلطة الابويَّة اللذيذ فليست العائلة حينئذٍ الاَّ جسمًا لاراس لهُ وسفينةً لا ربَّان لها ومملكةً صغيرة لاحكومة فيها حيث ينقلب نظامُ كلّ شيء ويصبح الناس فوضى ويستولي الشقاق وفساد الاداب والدمار والمظالم والجرائم والمصائب وفي الجملة هناك تتمثَّل جهنم حقيقةً . وليس من الممكن ان يكون الامر على خلاف ما ذكرنا لأنَّ كمال الجسم سوآء كان طبيعيًا اوادبيًا يقوم باجتماع اجزائهِ المتعددة الى وحدةٍ كاملة وما عسى ان يكون مبدا الوحدة هذا في جسمٍ ادبي كالعائلة الاَّ مبدا السلطة الذي من شانه ان يضم الاعضاء ويخضعها للراس ويوءلف بين افعالها ويسوقها لغايةٍ عامَّة هي خير العائلة .

اذًا متى كان مبدا السلطة هذا غير معروف حقّ المعرفة او غير محترم كانت العائلة حينئذٍ عرضةً للخلل والاعتلال وهدفًا للشقا والوبال .

ولقد ساء فهم جماعة الوثنيين والمتخلقين باخلاقهم لحقيقة السلطة الابوية لما انهم يجهلون مصدر اشتقاقها اعني بهِ السلطة الالهية ولذلك يُرى هناك طرفا نقيض اسي التطرُّف في استعمالها عند الوثنيين واغفالها عند المتخلّقين بأخلاقهم نريد بهم الذين يتنكرون ويعيشون اليوم بحسب مبادي الوثنيَّة : فاولئك ينزلون العائلة منزلة متاع ويستعملون في جانب بنيهم حقوقًا ليست لهم وهولآء يعتبرونها بمنزلة جمهورية صغيرة يحقّ لكلٍ من افرادها ان يشترك بادارتها وتدبيرها : أُولئك يتطرَّفون في الغالب الى تزويج بنيهم دون ان يسأَلوهم عن شيء حتى رضاهم وهولآء يبيحون لهم ان يتفانوا بالعشق على هواهم فيفضي بهم الامر الى خطر عقد زواجاتٍ لاتناسب مقامهم بل تضع من شأنهم وربما افضت الى خراب بيوتهم : اولئك كثيرًا ما يقسرونهم الى حدّ ان يحسبوهم ضمن دائرةٍ حرجةٍ اشبه بالسجن او الى حدٍّ ان يتجرَّدوا في حرّيتهم وشرفهم وهولآء

يدفعونهم غالبًا الى يد انفسهم والى سلطان اهوائهم الجموحة اخيرًا ان الوثنيين يدبرون العائلة بالامر المطلق وفي الغالب بالاستبداد والمتخلقين باخلاقهم يسوسونها بمقتضى مبادي الاباحيين الحديثة ولذلك كانت العائلة على الغالب اشبه بجماعةٍ مدنيةٍ قد تضعضعت حوالها حتى اذا قلّ فيها اعتبار السلطة والشريعة انقلب نظام الجمهور لكل وهلةٍ واختل السلام وصارت الحكومة قيد اهواء الأحزاب يستخدمونها في تنفيذ مآربهم الشخصية ·

فملافاةً لهذا الخلل الجسيم في العائلة تحتم على روساء العيال ان يتدبروا معنى رسالتهم الالهية ويذكروا انهم ممثلون للعزّة الالهية على الارض وان سلطانهم غير صائر اليهم بطريقة الوكالة بل بالاصالة وينبغي للبنين ان لا يحسبوا انفسهم موالي او عبيدًا ارقاء بل مروءوسين مطيعين يجب عليهم ان ينقادوا لذلك السلطان الشريف الصادر من الله والممثل في الوالدين ·

عد ٢ ولابد في حيازة سلطان الوالدين كلّ الفاعلية الادبية التي يحتاج اليها من ان يقترن دائمًا فيهم بمثال السيرة الصالح لما انهم ليسوا اباءً لبنيهم فقط بل رعاتهم ومعلميهم ومدبريهم وعليه فلا يغني عنهم ان يقولوا لبنيهم هاكمُ طريق الفضيلة والشرف سيروا بها بل يجب عليهم ان يسيروا امامهم بالمثل الذي هو افعل دائمًا من الكلام وما فائدة الكلمة من دون المثل الّا ان تدلّ البنين على ان والديهم يخطأُون لا جهلاً منهم لما انهم يعرفون ان يعنوا لهم اصلح التعليمات بل عمدًا وبذلك يضحون محتقرين في اعينهم

اجَلْ ان البنين يصيخون سمعًا لتعليمات والديهم الصالحة ويعجبون بها ايضًا اما في العمل فتراهم يطبقّون سيرتهم على مثال سيرة ابيهم او امهم لانهم لما كانوا مطبوعين على الاقتداء باعمال غيرهم بل كانت حياتهم قائمة بالاقتداء لزمهم ان يكونوا الى اقتفاء امثلة ابائهم او امهاتهم اسرع منهم الى اتباع ارشاداتهم ·

وهنا نستسمح القرّاء في ايراد مثلٍ قديم يعرفه الجميع وقد قرأُوه مرارًا في صغرهم او جعلوه يتلى على مسامع بنيهم الصغار دون ان يصرفوه الى انفسهم والظاهر ان ذلك المَثل قد ضُرِب خاصةً في جنب أُولئك الوالدين الكثيريّ العدد لهذا العهد الذين يحسنون التعليم ويسيئُون العمل وتنصلاً من الذنب يتفوَهونَ ابدًا بهذه العبارة العاديَة : بنيّ لا تنظروا الى ما افعل بل فانظروا الى ما اقول : كأنّ لهم آذانًا واعية

وليس لهم اعين باصرة . اما المثل الذي اشرنا اليه فإنما هو تلك الحكاية التي لاتزال على جدّتها وحسن وقعها مهما كثر ترديدها : نريد بها حكاية السرطان الذي لما صمم على تعليم صغاره سنّة المشي الى الامام (ونعم المعلم) كان يقول لهم : بنيّ ان مشيتكم الى الوراء لا تروقني ولاتليق بكم في عصرٍ يمشى فيهِ دائمًا الى ما قدام ولا يُرجَع فيهِ القهقرى لذلك قد عولت على ان اعطيكم مثالاً بنفسي فانظروا اليّ : ثم اندفع يمشي : ولما كانت مشيته بحسب طبعهِ اي الى الوراء كان صغارهُ يمشون كذلك وفي اعتقادهم انهم يمشون الى الامام فاذ راى الاب منهم ذلك احمرّ غيظًا وخجلاً وشرع يغلظ لهم التأنيب فانبرى احد صغارهِ وهو اجرأُهم وقال لهُ : أَبَتِ طالما انت دليلنا ومعلمنا تمشي متورّكًا الى الوراء فلا يسوءنّك منا نحن تلاميذك وبنيك ان نفعل مثلما تفعل اذ حسب التلميذ ان يكون مثل معلمهِ «اه»

ما أكثر الوالدين الذين ينطبق عليهم مغزى هذه الحكاية الادبي فانهم يتورّكون في سبيل الخير مدّعين ان بنيهم يسيرون فيها سويًّا : وما أكثر ما نرى اباء العيال في ايامنا هذه يمشون مطلقي العنان لانفسهم ويتباهون مع ذلك بانهم لايخلون بشيء من واجباتهم لانهم لا يطلقون لبنيهم عنان الشهوات كما يطلقونه لانفسهم وهم عادةً لا يبعثهم على ذلك حب الفضيلة بل معرفتهم تعذُّر تدبير البنين الجامحين ومع هذا اتراهم يصيبون الغرض بهذه الطريقة كلاَّ بل يهدمون بيدٍ ما يبنونهُ بالاخرى اعني انهم بامثلتهم الرديئة يمحون من خواطر بنيهم التصوُّرات المفيدة التي انطبعت فيها بواسطة الارشادات الصالحة ويفرغون مكانها بذار الفساد المقبل .

فليسر اذًا الاباء والامهات امام العائلة في طريق الفضيلة فتحذو هي حذوهم لان ليس لنا بوجه العموم دليل اسدّ ولاضابط اوكد للحكم على ادبيّة الوالدين من النظر الى ادبيّة البنين وقلما يخطىء هذا المبدا : فهذا الشابُّ ملكٌ مجسم وهذه الشابّة زهرةُ العفاف فينبغي اذًا ان يكونا ولدي أبوين صالحين قديسين : كذا ينطق الجمهور وحسنًا ينطق بذلك : لان سيرة البنين هي في الغالب على شكل سيرة ابائهم .

عد ٣ هذا ولاخلاف في ان المثل الصالح على كونه الركن الاوّل في التربية يفتقر الى سواه من الدعائم التي تسهل وتحقق فاعليتهُ وتلك هي وسايط التحوُّط والعلاج بالادواء الادبية المعرَّض لها الانسان منذ صغرهِ اما الوسائل الأُولى فهي دائمًا الاحسن والأَفعل

لان رعاية الاصحاء اسهل من شفاء المرضى فكم من الوالدين الذين يتحوَّطون بنيهم ويحرسون زهرة البرارة تضرع فيهم بحيث لا يتهيا للنفحة الوبائية الناشئة من فساد التمدن الحالي ان تسفيهم بابخرتها المتكونة من الحميم والجحيم على ان كثيرًا من الوالدين يروقهم ان يعرضوا الفضيلة الضعيفة لخطر لجرّهم بنيهم الى كل نوع من المشاهد والروايات التي مرَّ لنا الكلام فيها في عددٍ سابق قبل ان يتحققوا ما اذا كانت ادبية او موقوفة على الاقل بمعنى انها لا تمس الدين والاداب ويعتذرون عن تعاميهم وتغفلهم بانهم لا يعبأُون بما يقوله او يفعله مشخص الرواية ومثلوها: نعم قد يصدق عليهم انهم لا يعبأُون بما ذكرنا اما بنوهم فيحتفلون به فانهم يدخلون الان الى العالم وبما انهم داخلون اليه حديثًا يراقبون كل شيء ويعجبون به على حد ما يفعل الفلاح الداخل حديثًا في دور التمدن وهم سليمو السريرة متهيئون للتصديق والاغترار يحبون اللهو ويسرعون اليه ويعتبرون الخرافات كانها صحيحة وياخذون المزح ماخذ الجد وينطبع في مخيلتهم المتهيئة كل ما يشاهدونه ويعونه في حافظتهم القوية الى امدٍ طويل وهم متهيئون لقبول كل الصور ولخلوّ خواطرهم من الافكار والاهتمامات لا يعلق باذهانهم الا ما رأوه وسمعوه ويتخذونه لانفسهم غذآء بما فيه من الضر الادبي الذي يدركه بادنى كلفة كل من عرف الروايات الحديثة.

ومثل ذلك قل عن الخطر الذي يعرضهم له اولئك الوالدون الذين يبيحون دخول كل نوعٍ من الجرائد والكتب الى بيوتهم واقبح من ذلك انهم يقتنونها لانفسهم ثمَّ يعتذرون بانهم يحفظونها باحترازٍ في مكاتبهم ولا يدرى هولآء الاغبيآء انهم بذلك يهيجون رغبة بنيهم الشديدة بمطالعتها فيعملون الحيلة والجهد ويبذلون كل ما بوسعهم للوصول اليها حتى اذا ظفروا بها طالعوها بفرط الرغبة: فلقد برح اذًا من الخواطر خطأُ امنا حوَّاء وذلك القول: احبُّ شيء الى الانسان ما منعا: الصريح بالدلالة على ميل طبعنا الساقط.

ثمَّ ان بعض الوالدين وهم كاولئك تغفلاً يجسرون على تزيين منازلهم بصورٍ رمزية يزوقونها بمناظر يعزُّ على ابصار الحشمة ان تنظر اليها دون حجاب اوانهم يزينون القاعات والحجر برسومٍ وتماثيل تستدعي يد التقى لتحجب خلاعتها وتنتزعها ابصار الصغار والعذارى البررة فهولآء الاباء يعتذرون عن ذلك بكونه يوافق ان تتعود العائلة النظر الى مثل

هذه الاشياء بعين التجرد الفلسفي على ان الواقع هو ان بنيهم يتعلمون الشر باكرًا وتنطبع فيهم الرذيلة منذ نعومة اظفارهم ·

وماذا نقول في اولئك الذين يفتحون ابواب بيوتهم في وجه كل طبقةٍ من الناس دون التفات الى سيرتهم اوالى ماهية مذهبهم في شان الاداب والدين أعلهم يظنون ان بنيهم لصغر سنهم لا يصغون الى ما يتحدثون به انهم لعلى ضلالٍ وخداع فان الصغار متهيئون لسماع احاديث غيرهم حتى ايام يظهر عليهم الطيش في عنفوان صبوتهم ثم من عادتهم ان يرددوا كل ما سمعوه ولذلك يتفق غالبًا ان الوالدين انفسهم يتعجبون من سمعهم من شفاه بنيهم الناعمة بعض الفاظٍ دنسة او ملتبسة او مشعرة بارطانة وتجديف ولكن لم يكن لهم ان يتعجبوا بل كان عليهم ان يتوجعوا ويلوموا نفوسهم كلما افتكروا بتلك الاحاديث التي جرت على مسمعٍ منهم من جماعة الاصدقاء الذين استقبلوهم في بيوتهم ·

واخيرًا ماذا نقول في اباء وامهات العيال الذين قد ساء ما تعودوه من استيداع بنيهم الصغار وهم أنفَس ما يملكون من الكنوز الى عناية الغلمان والجواري بثقةٍ واهمال وخلوّ بال ليس معه ادنى اضطراب فهل لهم في ذلك وجهٌ لتبرئة ساحتهم امام الله والناس فيما لو فسدت اداب بنيهم كما هو الغالب في مثل هذه الحوادث فاننا لنضرب صفحًا عن اولئك الوالدين الذين لا يعنون بان يحرسوا بنيهم في ضمن جدران البيت بل يدعونهم يطوفون ازقة المدينة في صحبة اي طبقة كانت من الرفقة وكذا نضرب عن اولئك الذين لا يهتمون بمعرفة ما هي الدروس الادبية والدينية التي يتلقاها بنوهم في المكاتب العمومية ومثلهم اولئك الذين لا يبحثون عن الكتب التي يتداولها بنوهم ولا عن المواضع التي يتطرقون اليها ولا عن السيرة التي يسيرون وهم غائبون عن ابصارهم فمن الواضح ان مثل هؤلاء الوالدين هم المواخذون لتغاضيهم الملوم بخراب اداب بنيهم المعرضين اليوم اكثر منهم قبل للوقوع في اشراك البدع المضادة للدين المسيحي ·

فمّا المعنا اليه يتهيأ للقاري ان يدرك كبر الذنب الذي ياتيه في وجه انحطاط الشبيبة الادبي مربوها الاولون او الوالدون الذين قلما يهتمون او لا يهتمون بان يبعدوا عن العيال الجارية على طريق العصر اسباب الفساد المار ذكرها التي اتينا على شرحها بالتطويل في عددٍ سابق ·

عد ٤ هذا ومتى لم يخل الوالدون بشيء مما ذكر فلا ينقضون الأجزاء من واجباتهم اذ يجب عليهم لا ان يتلافوا الشر بازالتهم اسبابه فقط بل بتشديد عزائم ابنائهم وتعزيز الشعائر الادبية والدينية فيهم بكمال الوسائل الملائمة .

فمن ذا الذي يجب عليه ان يطبع على صفحات اذهانهم ابتدائيًا تصوُّرَ الله ومن عليه ان يبذر في قلوبهم الخالية بذار الفضائل المسيحية ومن يترتب عليه ان يعلمهم بسط ايديهم الصغيرة نحو السماء والصلوة لابينا السماوي ليس ذلك على كاهن الرعية ولا على المعلم بل على الاب وفي المقام الاول الام التي يناط بها تربية الانسان بداءة ذي بدء: ثم ان عليم الواجبات العملي وخوف الله المقدس واحترام الديانة ومعرفة عقائدها وحب الاداب وكره الرذيلة تلك احساسات وتصورات يجب ان تمزج بنوعٍ ما مع الحليب وان تنمو وتنشأ بين جدران البيوت فيتأتى لها ان تستحكم وتتاصل في قلوب البنين حتى اذا بلغوا السن التي تقضي عليهم بالترداد الى المدارس تكملة لتربيتهم تحتم حينئذٍ على الوالدين ان يحسنوا اختيار معلمين يعرفون ان يقرنوا بالعلم مثال الاداب المشهودة ·

فيا اباء العيال من يضطركم ان تبعثوا بنيكم الى مدارس قد نفي منها التعليم الديني اولا يدرس فيها الا الازراء والاستخفاف بكل ما يلابس الاداب والمبادي المسيحية او على الاقل من يفسح لكم في ما يترتب عليكم من واجب السهر على المدارس العمومية التي قد اكره بنوكم على مداومة التردد اليها . آه فلو كان هناك من يجسر على ان يدس لهم سم التعاليم الرديئة كما يتفق على الاغلب الا فاصرخوا باعلى اصواتكم ضد معلمي الضلال واحتجوا عليهم واكتبوا وضجوا وابذلوا كل ما بوسعكم لتحملوا الحكومة والمجالس على انزال مفسدي الشبيبة من على منابر التعليم واذا لم يتم لكم ما تشتهون فاخرجوا بنيكم من المدارس العمومية فلأَنْ يكون في البيت قليلُ علمٍ خيرٌ من كافرٍ ومنافق فاسد الاداب واصرفوا عنايتكم الى ان تمحوا من اذهانهم ما علق بها من آثار التعليم الفاسد وتحوّطوا لهم ضد سفسطات الضلال والاثم ·

فان فعلتم ذلك كان لكم بنون ادباء فضلاء صرحاء في المسيحية بحيث يتهيأ لكم ذات يومٍ ان تجمعوا كثيرًا من حصاد التعزيات والمساعدات والفخر .

وحيث ان سورة آلام الصبوة والطيش التي هي من خصائص هذه السن قد تجعلهم ان يتدرجوا الى الخطا فاعلموا ان لكم حقًا وعليكم فرضًا ان توبخوهم وتقتصوا منهم

انهم يهملون قضاء هذا الفرض المقدس مخافة ان تحزنوهم وتبكوهم قليلاً او لا تفتكرون ان بكاهم هذا اشبه ببكاء الجفنة التي تدمع وتئن تحت قطع الاكار الشفوق الذي يكبح شهوات فروعها وفرط نمو اغصانها بقطعهِ بعضها لئلا تذهب كل قوتها التوليدية الى النمو المفرط بل تعطي ثمرًا لعمري ان تصرفكم على هذا الوجه لا يشعر بحبكم بنيكم لان حدّ المحبة ان يراد خير المحبوب ارادة فعالة او ان يتسبب به: المحبة عبارة عن ارادة الخير للغير: كما قالهُ القديس توما. والحال ان خير بنيكم يقتضي ان تقطعوا منهم بحديد التونيب افراط الشهوات كل مرةٍ تجاوزت حدّ الاعتدال وتوعدتهم بشدة انطلاقها بالعقم الروحي ولامرٌ في الحقيقة مبكٍ ان نرى كيف قد سرى الى العيال تحت طيّ الحرية مذهبٌ يمطر على الاجتماع المدني عبابًا هائلاً من الجرائم والعبرات والدماء والاضاليل الى حدٍّ يكلّ عنه الوصف نريد به مذهب القائلين بعدم ملافاة الجريمة قبل وقوعها وبعدم الاقتصاص منها بصارم العدالة بعد وقوعها: اوّاه ما اكثر الوالدين في عهدنا هذا الذين قد افرطوا في الرقة واللين والدلال الى حدّ انهم لا يرون ان يغلظوا التأنيب لبنيهم اذا سقطوا في زلةٍ فضلاً عن انهم لا يجسرون على الاقتصاص منهم وان تسالهم عن سبب تصرفهم هذا اجابوك ان التربية في مذهب المتاخرين لا تقتضي قصاصًا كأن الناس اليوم ليسوا من الجبلة الآدمية او قالوا لك ان قلبهم لا يطاوعهم الى هذا الحد لانهم يشعرون باهتزاز كل جوارحهم هزة شفقةٍ وحنو ولكن ما هذه الجوارح وما هذه الرافة لعمري ان تركهم بنيهم يطوّحون بانفسهم الى الهلاك مخافة ان يلمّ بقلب الاب قليلٌ تاثر وبالابن تحدُّر دمعةٍ صغيرة تلك قساوة لا رافة لان جراح البنين الادبية اذا لم تعالج في الوقت الملائم التهبت عما قليل وترامت الى الفساد واستعصت على كل علاج فما قولك عن طبيب يدع العليل يموت لئلا يمرذوقه بالدواء او يجرحه بآلةٍ تسيل رافةً وحنوًا أهو عندك طبيبٌ شفوق او بالحري خالٍ من الشفقة بل لصٌّ وقاتل ولو ذهل الطفل فأدنى شفتيه من نباتٍ سامّ افما كان ابوه او امهُ يتعجل انتزاع ذلك من يده دون التفات الى بكائه وصراخه في طلب ذلك عن جهل وغباوة اجل تلك شفقة ابويةٌ ومحبة والدية فما بالهم لا يفعلون مثل ذلك باولى حجة مع بنيهم فيما يلاحظ خلاص نفوسهم سواء كان بتدارك سريان السم اليها او بانتزاعه منها بواسطة العلاج.

ولا يخفى ان امر التوبيخ والقصاص ينبغي ان يراعي فيه وجه الفطنة والاعتدال فان الوالدين لم يوتوا هذا السلطان الا باعتبار خير بنيهم فينبغي لهم ان يحترسوا في ذلك من كل نزعة هوًى لان التوبيخ او بالحري القصاص اذا كان مشوبًا بقسوةٍ مفرطة او صادرًا عن انفعال وعلى غير وجههِ او في غير اوانهِ ومحلهِ شأنهُ ان يضر كثيرًا بالفاعل والمفعول بهِ معًا اما الاول فلأنهُ يفقد القوة الادبية واما الثاني فلانهُ يهيج جرحه مكان ان يدمله . واخيرًا من المعلوم ان القصاص ينبغي ان ينطبق لا على كمية الذنب فقط بل على حالة المذنب ايضًا بمعنى انه يجب ان يراعى فيهِ سن الولد المطلوب اصلاحه وقصاصهُ وخلقه وحالته الطبيعية والادبية لان ما يفيد الواحد قد يضر بالآخر وما ينفع في احدى الحالات قد لا ينفع في غيرها : مع ذلك نقول ونعيد القول أن يجب تأنيب البنين والاقتصاص منهم متى سقطوا في زلةٍ لانهم عادةً يقدرون ثقل الذنب بقدر كبر القصاص ويعتقدون ان ليس بزلةٍ او هو زلة خفيفة ما يمكنهم ارتكابه دون قصاص .

فمن كان اذًا لا يريد بنين فاسدي السيرة والآداب فليعنَ بتقويم الغرسة ما دامت صغيرة لانها متى كبرت تعذَّر تقويم التوائها واما اولئك الوالدون الذين اخلوا باتمام هذا الفرض المجحِ واهمية اشرنا اليها آنفًا فاذا نشأ بنوهم على خشونة الطباع والكبرياء والخلاعة والهذر والسرقة وبالجملة فاذا لم ينشأُ وا للسماء بل للجحيم وقد جعلوا الجحيم مذ الان في البيت فلا يلوموا في ذلك كله الا انفسهم ولولا الرأفة بهم والشفقة عليهم لقلنا لهم هذا كسبُ ايديكم انتم قد ربيتم بنيكم على هذه الطريقة فلا يحق لكم الان ان تشكوا منهم اذا اصبحوا على الحالة التي ينبغي ان يكونوا عليها ضرورةً : جموحين غير مروضين صعاب الانقياد : بل فاشكوا توانيكم وجبانتكم فانما الذنب ذنبكم ومن مقتضى العدل ان تكفروا عنه في هذه الدنيا وربما في الاخرة لاسمح الله متى يطالبكم الديَّان العادل بالحساب المدقق عن بنيكم الذين لم يهبهم لكم بمنزلة متاع بل قد استودعكم اياهم بمنزلة وديعة يجب ان تؤدوا له يومًا الحساب عنهم مؤاخذين بما جنت ايديهم

وقبل ان نختتم الكلام في نقطة مهمة كالتاديب فليسمح لنا ان ناتي هنا على تفنيد زعمٍ آخر فاشٍ بين الاباء والامهات وهو خوفهم من ان الاصلاح يفضي الى خسران ثقة بنيهم بهم ومحبتهم لهم

لعمري لاجبانة ابلد واجمد من هذه : أترى العليل الذى حاز الشفاء لا يبارك في

كل ساعة الطبيب الذي أمرّه بالادوية الشافية او جرحه بالات القطع فعلى هذا الوجه اذا ما تنصل البنون من امراضهم الادبية او بلغوا سن الادراك والتروّي يباركون الوف مرات تلك اليد الشفوقة التي كبحت جماحهم في وعور الصبوة وقد ضربتهم لتشفيهم وبعكس ذلك الذين جرّهم وهن والديهم الى ان يشيخوا او يتنوا في رذائلهم اذا راوا من نفوسهم تعذر الاصلاح مما تاصل فيهم من الملكات السيئة فانهم يلعنون محبة والديهم الكاذبة ويلقون على عاتقهم الذنب فيما صاروا اليه من التعاسة: فقد عرفنا شابًّا قضي عليه بالموت لجريمةٍ كبيرة جناها فلما سيق الى منقع العذاب واخذ الكاهن الحاضر يحثه ليغفر لاعدائهِ صرخ قائلاً: نعم قد غفرتُ للكل الاّ واحدًا: فسئل من كان ذاك فاضطرب بجملته وحدّق بعينيه وقبض على يديه وحرّق باسنانهِ وزأر زئير الاسد المجروح وصرخ باعلى صوتهِ: انهُ لأبي: ثم قال «اذهبوا وقولوا لأبي ان ابنك قد رماك باللعنة قبل ان يموت. ولقد اتضح للعيان ان تلك اللعنة قد انقضت على رأس ذلك الوالد الشقي فاحرمته منذ ذلك اليوم الخير والسلام في العالم. فكم والدٍ اليوم تنقض على رؤوسهم مثل هذه اللعنة وقد اصبح بنوهم الذين اساءوا تربيتهم جلّادين لهم: قلنا جلّادين: لانهم على غير علمٍ منهم ينفذون احكام العدل الالهي اذ يقتصون من والديهم عن قتل الشبيبة الادبي نريد بهِ اغفال التربية

ولكي تستظهر كبر ذلك الذنب ينبغي لك ان تنظر الى طبيعة الواجب الذي يخالفه الوالدون باغفالهم التربية المسيحية لبنيهم فهذا الواجب ليس واحدًا فقط بل ثلاثة لصدوره عن شريعة المحبة الثلاثية اي الطبيعية والاجتماعية والمسيحية ولا يثقلنّ على القراء ان نلمع الى شيءٍ في شان هذه الشريعة قبل ان نختتم هذه الجملة فنقول

عد ٥ انها لشريعة طبيعية ان الوالدين بصفة كونهم عللاً ثانية لا يولون بنيهم محض الوجود والحيوة فقط بل الصور الأُولى لحسن الوجود والحيوة ايضًا لان نية الخالق ان لا توجد مخلوقاته فقط بل ان يكن كلٌ منها كاملاً في جنسهِ ولذلك فهو سبحانه يخلق كل واحدةٍ منها محلاّةً بالكمالات التي يقتضيها وجودها اذا كانت غير قادرة على التكامل من ذات نفسها اما اذا كانت قادرةً عليه فيحرك العلل الثانية التي اولدتها لتوليها الصورَ الاولى لاتقان الوجود واحكام العمل فيهيّئها لها بمعاونة تلك وممارسة قوتها الفاعلية ان تبلغ مبلغ الكمال الذي يقتضيه طبعها: ولما كان تعالى بعنايته ذات

المحبة يميل بمخلوقاته الى الغاية المترتبة لها فتسهيلاً للحصول على هذه الغاية قد غرس في المخلوقات المتنفسة وخصوصاً ذوات النطق محبة شديدة بالدنية لنسلها لتكون على احسن استعداد لتربيته وانما لنرى بالعمل كل حيوانٍ محمولاً من غريزته على تربية نسله بحسب الغاية او الخير المخلوق لاجله ومتى كان ذلك منحصراً ضمن دائرة المحسوس لم يكن يستدعي من العناية والاهتمام الاّ ما يقتضيه كمال الوجود الحسي .

اما اذا كان الكلام في الانسان الذي هو اكمل طبعاً لكونه ناطقاً وارفع غايةً واسمى خيراً لتناوله حدود المحسوس والمخلوق والمتناهي فمن الواضح ان تربيته يجب ان تنظر لا الى كمال وجوده الحسي فقط بل بالحري الى كمال وجوده النطقي والادبي وفي الجملة يجب ان تكون تربية الانسان باعتبار كونه انساناً ولانه كذلك ويمتاز امتيازاً ذاتياً عن البهيمة باعتبار كونه ناطقاً ادبياً ودينياً فتربيته لا تنطبق على طبيعته وغايته الاخيرة ما لم تكن نطقية ادبية دينية في وقتٍ واحد . ومن هنا يتهيأ للقارىء ان يتنج جسامة الاهانة التي يلحقها بشرف الانسانية اولئك الوالدون الكثيرو العدد في ايامنا هذه الذين ينشغلون بجملتهم بتنقيه عقول بنيهم في العلم غافلين بالمرة عن تثقيف قلوبهم ناهيك عن اولئك الذين يصرفون جلّ عنايتهم الى خير بنيهم المادّي فقط فهم يستطيرون فرحاً وكبراً متى كان بنوهم اصحاء موفقين بدناء حسني المنظر فبما ان هولاء المساكين لخلوهم من العلم ليسوا الا بمنزلة تماثيل جميلة تصلح لان يحلى بها احدُ المتاحف او بمنزلة حيوانات صغيرة تصلح لزينة مشهد الوحوش

فمثل هولاء الوالدين يتعدون الشريعة الطبيعية سواء كان بجهلهم غاية التربية التي هي تكميل الانسان بالنظر الى سعادته الابدية او بقلبهم كلّ نظام الوسائل التي وفقها الخالق على تلك الغاية فانه تعالى قد اخضع فينا اللحم للروح والحس للعقل والعقل للارادة والمعرفة النظرية للعملية وبالتالي قد رتب التربية الطبيعية العقلية وهذه للادبية والدينية التي تتعلق بغاية الانسان الاخيرة بلا واسطة أفلا يكون اذاً عملاً منافياً للطبيعة وخارقاً لشرائعها المقدسة تربية الانسان من حيث الحيوانية فقط لا من حيث النطق والاداب والدين .

وزد على الواجب الصادر عن المحبة الطبيعية الواجب الناشئ عن المحبة الاجتماعية فيظهر لك باجلى بيان ثقل الزام الوالدين بتربية بنيهم فان من كان عضواً في جسم

جماعةٍ وجب عليه ان يرتب افعاله لخيرها والحال ان كمال الجماعة المدنية ونجاحها يتعلقان بالعائلة التي هي الركن الاول الذي يتركب منه الاجتماع المدني المؤلف من العيال وايّ شيء يكمل العائلة الا التربية الصالحة : فحكم التربية في النظام الادبي كحكم الزراعة في النظام المادي فكما ان الزراعة هي الينبوع الاول للثروة المادية كذلك التربية هي المصدر الحقيقي للثروة الادبية في الاجتماع المنزلي والمدني ولذلك قد اشغلت في كل زمان خواطر احكم الرجال واحبهم للخير العام فكم صنف في هذا الموضوع لااقول اباء الكنيسة وايمتها وعلماء اللاهوت والفلسفة من المسيحيين الذين ليس منهم الاّ من كتب فيه بعظم الاجتهاد والبلاغة بل الفلاسفة الوثنيون انفسهم كارسطاطاليس في كتابهِ الثامن في الرجال السياسيين : وافلاطون في الكتاب الثاني والرابع في الجمهورية وشيشرون في كتابهِ الثاني في الواجبات وبلوطارخوس في كتابهِ الشهير الذي وضعه في هذا الباب : فتربية البنين اذًا في رأي افاضل الحكماء ذات اهمية كبيرة بقدر اهمية خير الجماعة والوطن فمن اغفلها لا يستحق ان يسمى باسم ابي العائلة ولا باسم وطني

بئس الحب الوطني الذي يعدُّ للجماعة والوطن مكان رجال ادباء ووطنيين فضلاء رجالاً أثمة يلطخون اسمه ويشوشون سلامه ويعرضون وجوده نفسه للخطر فبكم معشر اباء العيال الذين تقرأُون هذه السطور يناط الاهتمام بمستقبل وطنكم فهو ابدًا ينظر اليكم ومنكم يتوقع حكم الحيوة او الموت : الا ترونه يكشف لكم عن فؤادٍ مثخن بالجراح التي تصيبه كل يوم من شبيبةٍ قد نشأَت في الغالب على اطراح الله ونبذ الشريعة ظهريًّا واستسلمت للمؤامرات وتهافتت بطيشها الى الخطف والانتقام وسفك الدماء ودنست البلاد بالقتل والانتحار وانغمست في الملاذ وترامت الى كل نوعٍ من الخلاعة : فاسم الوطن كل ساعةٍ بين شفتيها لكن لا في قلبها وهي تتدثر بشعاره ولكن لتستر قبائحها وتزدهي بمفاخره القديمة الا انها تواريها بخصالها القبيحة : فاشفقوا اذًا على وطنكم واعدوا له بواسطة التربية الصالحة الموءسسة على المبادي المسيحية المقدسة وطنيين لائقين به وبتلك العظمة الادبية والمدنية التي بوَّأَته يومًا عرش التمدن بين سائر الشعوب : فرجل كذا يدعى وطنيًّا صالحًا ومسيحيًّا اهلاً لهذا الاسم . ثم ان فرض تربية البنين فضلاً عن كونه واجبًا طبيعيًّا واجتماعيًّا هو بنوعٍ اسمى واجب مسيحي بحيث ان مخالفته تحسب في حكم رسول الامم كنكران الايمان بالعمل واقبح من الكفر قال : وان كان احد لا يعتني

بذويهِ ولاسيما باهل بيته فقد انكر الايمان وهو شرٌّ من كافر (١) وانما لنضرب حبًا للاختصار عن ايراد العبارات الفخيمة من الكتاب التي يحض الله بها الوالدين على اتمام هذا الواجب المقدس فليطالعها من شاء في سفر تثنية الاشتراع (١١ - ١٩) وفي سفر ابن سيراخ (٣٠ - ١٢) وفي رسالة القديس بولس الى الافسسيين (٦ - ٤) ناهيك عن التحريضات المبرمة التي تلقيها الكنيسة بلسان ابائها وايمتها ولاسيما اغوسطينوس وامبروسيوس : فان مقتضى كلام الاول ان يكون الوالدون في وسط العائلة كالاسقف في الكنيسة اي رعاةً ومعلمين واطباء لنفوس بنيهم : ومقتضى كلام الثاني ان يتمموا نحوهم وظيفة الرسل بالغيرة على خلاصهم الابدي . وحسبنا ان نخطرهنا على بالهم ان الغرض المقصود من الزواج المسيحي ليس هو ايلاد البنين فقط بل تربيتهم على سنن الدين المسيحي بحيث ان الاخلال بهذا الغرض يعد بمثابة امتهان لنية واضعه الالهي فان تدنس الزواج الذي ارقاه المسيح الى شرف السر تلك ثلمة في شريعة المحبة نحو الله الذي يقع التعدي على وصيته ونحو المخلص الالهي الذي تنزع من بين يديهِ النفوس المحببة اليه والمشتراة بثمن دمهِ الكريم ونحو الكنيسة والجماعة والوطن لخيبوبة امالها ونحو البنين الذين يطوحون بانفسهم الى التهلكة ونحو انفس الوالدين التي يدنسونها بافظع خطاء نريد به اهمال التربية المسيحية .

بناءً على ما ذكر فليحكم كل من الوالدين بينه و بين نفسه على المسؤولية الرهيبة التي تترتب عليهم وعلى الحساب المدقق الذي سيؤدونه للعدل الالهي الذي يؤاخذهم لا بذنوبهم فقط بل بجرائم بنيهم الذين أساءوا تربيتهم .

روي ان اهل مدينة سبرطا كان من عادتهم ان يقتصوا من الوالدين عن الذنوب المفعولة من بنيهم وليس ذلك ببعيد من الصواب لانه اذا كان خطأُ البنين معذورًا لصغر سنهم وعدم ترويهم فليس كذلك تواني الوالدين في تربيتهم . روي عن احد الفلاسفة انه سمع يومًا كلمة سفيهة من فم احد الصغار فاندفعت يده بضربةٍ شديدة على وجه الوالد لا على وجه الولد السفيه وقال له : أهكذا انت تربي ابنك . آه لو عاد ذلك الفيلسوف الصالح الى العالم وطاف شوارع مدننا وتعاهد العيال فكم وكم ضربة تندفع من يديهِ : ومن عادتنا اذا ما رأينا صغيرًا خالع الاداب ان نقول فيه : ما اسوأ

(١) في رسالته الى طيموثاوس (٥ - ٨)

تربيته : وقولنا هذا بمحله لانه لو كان حسن التربية اذاً لم يكن كذلك . فالوالدون هم مسؤولون لامحالة امام الله والجماعة عن سوء ادب ابنائهم : ولقد اصاب الحكيم بقوله (سفر ابن سيراخ ٢٢ - ٣) «الابن الفاقد الادب عارٌ لابيه» فلو ان الوالدين قتلوا احد بنيهم ا.ا كانوا يحسبون من غرائب الطبيعة واما كان يصرخ ذلك الدم البري طالبًا الانتقام منهم وهم لم يعدموه الاهذه الحيوة الشقية الزائلة فيما انهم باغفالهم التربية المسيحية يعدمون بنيهم لاحيوة الجسد الزمنية بل حيوة النفس الابدية أفيسوغ ان يدعى مثل هولاء اباء او بالحري قتلة كلا لستم اباء بل قتلة بنيكم كما قاله احد الاباء القديسين

ولا يرد علينا اننا نغالي باعظام مسوءولية الوالدين بتعليقنا عليهم كل مستقبل بنيهم كلا لسنا نغالي بذلك لان الانسان بوجه العموم لا يكون الأ كما تكونه التربية او كما يربيه الوالدون : فالرخام ليس له من ذاته صورة معينة بل يستمد ويحفظ تلك الصورة التي ينقشها فيه النحات فيمثل ملكًا او شيطانًا بحسب ارادة الفاعل والارض اذا تركت وشانها كانت خرابًا اما اذا حرثت كما ينبغي اخصبت ثمارًا كذلك قلوب الصغار فانها كالرخام متهيئة لقبول الصور او كالشمعة صالحة لان ينطبع فيها مهما شئت من الرسوم وكارضٍ سبخة اذا لم تحرث لا تنبت الأ قطرب الخطايا وحسكها اما اذا حرثها مربوها الطبيعيون باجتهادٍ ورغبة انبت بكل نوعٍ من زهور الفضائل واثمرت اثمار البر

افتريدون يا اباء وامهات البنين اليكم يساق كلامنا مفرغًا في قالب المحبة اتريدون ان يكون لكم بنون صالحون بل قديسون ذلك اليكم على شريطة ان تقتدوا بمثال طوبيا البار وامّ المكابيين الباسلة والقديسة باولا الرومانية والقديستين فيليشيتا وسيفوروزا اللواتي اولدن بنين ابطالاً في المحاماة عن الايمان : وبالملكة بلانكا ام القديس لويس ملك فرنسا وقل هذا نفسه عن عددٍ لا يكاد يحصى من الاباء والامهات الذين اولدوا البنين فكانوا ذوي فضل على الانسانية وبسالةٍ للوطن وقديسين للكنيسة وطوباويين للسماء . اجل ان مهمتكم هذه هي غاية في الصعوبة لفساد الايام الا انها بسبب ذلك تعود عليكم بالفضل والفخر امام الله والبشر لانكم عرفتم رغمًا عن تيار الفساد المحدق بنا ان تحفظوا بنيكم سالمين منه وقد ربيتموهم وانشاءتموهم على مخافة الله المقدسة وممارسة الفضائل المسيحية انهم سيكونون ذات يومٍ سبب سروركم ويفرحون ايامكم ويشرفون اسمكم ويحفظون شيخوختكم بالكرامة والمحبة ويعزونكم في الساعة الاخيرة ويتبعونكم بانعطافهم الى

ما وراء اللحد وبعد غربة القبر الوجيزة يكونون لكم اكاليل فخر في السماء ان شاء الله» انتهى»

هذه الجملة التي اتينا على ترجمتها هي بما فيها من المبادي الصحيحة والحقائق الراهنة حرّية بان تنطبع على صفحات القلوب فنحث كل من يعنيهم امر التربية على اقتنائها والاقبال على مطالعتها والاهتداء بها الى وجوه احكام التربية التي عليها مدار العمران البشري وبها قوام الاجتماع الانساني على اختلاف طبقاته وهيئاتهِ بحكم العموم . ومن الظاهر بلا كلفة انه حيثما صلحت التربية واستقامت مباديها انتظمت احوال البلاد وعرفت الحقوق واحترمت الشرائع واستحكمت طرق الخير ومسالكه وتقلصت عوائد السوء ومذاهبه اما حيث اختلت مباديها وتعطلت احكامها تداعي العمران الى السقوط وترامى الى الانحطاط فتضعضعت الاحوال وعكف الناس على الشر وتلطخت انفسهم بكثير من مذمومات الخلق وعوائد السوء وذهبت عنهم مذاهب الخير وبعدت عليهم طرق الصلاح ففسدوا وفسد بهم الزمان . وكل من استقرأ تواريخ القرون الخالية وتقلبات الامم الذاهبة والباقية علم ان السبب الاكبر في ترقيها او انحطاطها وكرامتها او هوانها انما هو احسان التربية او اساءتها

هذا ولما كانت الجملة المشار اليها تشتمل على ما يلاحظ شوائب التربية بوجه العموم رأينا ان نعلق هنا بعض ملاحظات تنطبق على عوائد اهل بلادنا بوجه التخصيص فنقول :

كل من تتبع اخلاق اهل بلادنا وعوائدهم رأى من وراء المراقبة والملاحظة ان هناك شائبة ذميمة تكاد تكون عامة شاملة جميع الوالدين هي انهم يريدون في بنيهم نفعهم الخاص لا خير بنيهم الحقيقي او على الاقل يريدون ان يجروا في تربيتهم على حكم هواهم لا على مبادي التربية الصحيحة بدليل انهم يعدون لبنيهم وهم في المهد ومن قبل الفطام حرفة يحترفونها او علمًا يكتسبونه او حالةً يتخذونها ولما كان البنون قد لا يدركون صوالحهم او لا يقوون على مقاومة ارادة والديهم يضطرهم الامر الى السلوك في الخطة المنتهجة لهم فيقضون ايامهم في ما لا يجنون منه فائدة وبذلك يكون الوالدون قد خسروا نفعهم الموهوم وانفقوا الدرهم ضياعًا بل اضاعوا مستقبل بنيهم واوردوهم موارد الشقا والتعاسة والبنون قد صرفوا الزمان باطلاً وعلى غير طائل وقد ذهب عنهم النشاط وعراهم فتور الهمة وبعد عليهم طريق الاحتراف والتعلم . ومن المعلوم الثابت ان الفطرة لم تسوِ

بين الافراد في الاستعداد والاهلية وسائر المواهب الطبيعية بل قد اختلفت فيهم المشارب وتعددت الاميال وتفاوتت قوى العقل فهذا يميل الى الاحتراف وهذا مستعد لتحصيل ذلك الفن وهلمَّ جرًّا فالتسوية بين جميع الافراد في ما ذكر امرٌ محال بل منافٍ لحكمة الخالق سبحانه وتعالى الذي خص كلاًّ بموهبةٍ يتكون من اجتماعها وتضافرها قوام العمران البشري : فمن الواجب على الوالدين ان ينظروا الى خير بنيهم بعين التجرد مراعين استعدادهم وميلهم وقواهم دون التفات الى النفع الخاص اوالى نزعة الاهواء الوالدية : فيتفرع على ما ذكر ان الوالدين يخلون بواجبات التربية من هذا القبيل في امور كثيرة منها ان بعضهم لا يرون ان ينفقوا درهمًا واحدًا في سبيل تربية بنيهم الصغار في المكاتب الابتدائية بل في حال اشتداد ساعدهم يسوقونهم الى الحقل فياخذون مبادي التربية عن نظرائهم اوعن الحيوانات العجم التي يعيشون بينها فتخشن وتخمد مداركهم فلا يعرفون ما هو الانسان ولا ما هي الانسانية وواجباتها او قد يدفعونهم الى مكاتب معروف اصحابها بالضلال حيثما وجدت بحجة انها تقبلهم مجانًا ولا يدرون انهم بذلك قد يخسرون نفوس ابنائهم اوعلى الاقل ادابهم الحميدة او يبعثونهم منذ نعومة اظفارهم الى معامل الحرير وما شاكلها فتعتل ابدانهم واذهانهم وتفسد ادابهم في الغالب كل ذلك لئلا يخسروا الدرهم ولئلا يفوتهم الانتفاع ببنيهم منذ يوم امكن لهم الانتفاع بهم ومنها ان بعض الوالدين يدفعون بنيهم قسرًا وعنوةً الى اتخاذ حالةٍ بعينها من الحالات الاجتماعية او يصدونهم عن الدخول فيها او يقسرونهم على الزواج بشخصٍ معين امل الفوز ببغيةٍ دنيئة واماني كاذبة والحاصل ان مدار التربية عند الكثيرين منهم تحصيل المنافع من بنيهم بالطرق التي تعن لهم فهم ينزلون البنين منزلة بضاعة يتجرون فيها على هواهم غير مبالين بخير بنيهم وبما تقتضيه واجبات الابوة والتربية المسيحية .

وهناك ايضًا شائبة اخرى قد فشت كثيرًا لهذا العهد بين اهل بلادنا وهي اندفاعهم الى العمل بقوة التشبه والاقتداء دون امعان النظر في ما يقدمون عليه ودون تدبر عواقبه ونتائجه وقد سرت هذه الشائبة الى الوالدين انفسهم فاعتمدوها واتخذوها دستورًا لهم في التربية مع ما فيها من الاضرار الادبية والمادية لهم ولبنيهم وللوطن : ذلك انهم كثيرًا ما يبعثون على ادخال بنيهم الى المدارس فيعينون لهم الدروس التي ينبغي لهم تحصيلها ويضربون لهم اجلاً معينًا واياما معدودة هي دون حد الكفاء حتى اذا انقضت

اخرجوهم من المدرسة دون اعباء بتكملة علمهم ولا باهلية الطلبة واستعدادهم ولا بماهية الدروس النافعة لهم والتي ما زالوا قاصرين عن تحصيلها والذي يبعث الوالدين على ذلك انما هو في الغالب داعي الاقتداء والتشبه او داعي الحسد والتناظر فقد يرون شابًا من جيرتهم او من ذوي قرابتهم دخل احدى المدارس وحصل لغة ونبغ فيها فكانت له ذريعةً الى التقدم على اقرانه ووسيلةً للانتفاع بها فيريدون مثل ذلك لبنيهم فيدخلونهم الى المدارس على ما ذكر ولعدم استعداد بنيهم او لقصر المدة التي يصرفونها في تحصيل الدروس يخرجون من المدرسة غير قادرين على النفع والانتفاع بما تعلموه: وعلى هذا الوجه يذهب تعب الولد ودرهم الوالد ضياعًا. ومن ذلك ايضًا افراط الوالدين بالشفقة على اولادهم في امر التعلم فتنشا عن ذلك مضار كثيرة باداتهم وبتعلمهم نفسه ذلك أنهم كثيرًا ما يدخلون صغارهم المدارس فاذا ترعرعوا وشبوا ونما فيهم الميل للبطالة والملاذ بحرية سئموا التقيد بجدران المدارس واستعذبوا اطلاق الحرية وادلّوا على امهاتهم خاصة ملتمسين الارخاء لهم من هذه القيود بجعلهم خارجيين في المدرسة بعد ان كانوا داخليين فيها محتجين طورًا بانحراف صحتهم وطورًا بغيره فيوقع افراط الحنو الوالدين بالتساهل مع اولادهم فينشأ عن هذا فسادهم بالعشرات السيئة في البيوت وطرق المدارس وقلة النجاح في دروسهم لاشتغال فكرهم بغيرها ولا يمكن اشغال العقل بامرين معًا ولا اقل من فوات بعض الوقت لهم فتتعطل الغايتان المقصودتان من المدارس وهما حسن التربية والعلم

وشر من هذا جعل الولد في المدرسة خارجيًا مع امكان جعله داخليًا اذ يتعسر الا فيما ندر تحصيل غايتي المدارس المشار اليها فالاولاد في طور الصبوة ميالون على الغالب طبعًا الى البطالة واللهو واللعب ولا يكبون على الدرس والجد والعناء الا مكرهين ولا يتيسر اكراه الولد الخارجي على الدرس كل الوقت المفروض له فيفوتهم قسم كبير منه ثم ان لب الاولاد مشوب غالبًا بالطيش واقل الاسباب يشغل بالهم طويلاً فترددهم المتواتر الى بيوتهم يزيدهم طيشًا وشغل بال ويفتح لهم سبيل الاحتجاج والتثاقل عن الذهاب الى المدرسة فيومًا يتمارض الولد ويومًا يحتج بشدة البرد ويومًا بشدة الحر وهلم جرًا فلا ينجح بدروسه بخلاف ما اذا انقطع عن اهله ولم يبقَ له همّ الا في علمه ومجانبة مؤاخذة مدبريه ومغايرة نظرائه فيكب ليلاً ونهارًا بمجامع قلبه على دروسه فتنشأ وتنمو وتتمكن فيه ملكة

العلم . واذا كان جعل الولد خارجيًا في المدرسة مضرًا بعلمه فهو بآدابه وحسن تربيته وفضيلته اكثر مضرة وقد تقدم ان طبع الولد كالشمعة يسهل ان تطبع فيه كل ما شئت من صور جيدة كانت او رديئة فكيف تامن ان يدب الفساد الى ولد يمرّ كل يوم في اسواق مدننا ويسمع ما يتفوه به كثيرون بيننا من قليلي الادب وصبيان الازقة وكيف تامن عليه فساد الخادمين والخادمات في البيوت وقل منهم من كان حسن التربية والخصال او كيف يطمئن بال الوالدين على ان لا يسري الى ولدهم فساد معاشريه ورفقائه الى المدرسة وغيرها واين هذا من صيانة الولد داخليًا في المدرسة ليلاً ونهارًا بالحيطة له والسهر عليه ومنعه من كل صحبة يشتبه بسلامتها ومن كل معاشرة سيئة ومن كل ما يخدش ذهنه وقلبه واشغاله في كل اوقاته بعلمه وفروضه حتى لا يعطي ابليس مكانًا فيه ولا وقتًا من اوقاته فضلاً عن ان اقامته كذلك اضمن لصحته وافيد لعافيته كما هو مستغنٍ عن البيان لحفظ نظام معيشته ووقايته من التغيرات الجوية وغيرها . ان اهل البلاد المتمدنة كاوربا لا يجعل احدهم ولده لاسيما الصغير من طلبة المدرسة الخارجيين الا اذا كان ممن لا يسعه في حاله ان ينظمه في سلك الداخليين والباقون اجمع يرسلون اولادهم الصغار اما الى مدرسة منظمة او يسلمونهم الى عناية مثقف يثقون بعلمه وآدابه ثم اذا شب الولد واكمل علومه الابتدائية في مدرسة يتردد وهو في سن الشبيبة الى احدى الكليات او المدارس لاقتباس فرع سام من العلم كالطب او الحقوق او غيرهما على ان جميع مديري المدارس في بلادنا يوءثرون قبول طالب داخلي على عشرة اولاد خارجيين لا من جانب جر النفع المالي بل من جانب استزادة فائدة تلامذتهم وحسن مرباهم وطيب سمعة المدرسة اذ يعلمون يقينًا ان الخارجي لا يتيسر له النجاح في العلم والتربية كالداخلي فيخشون نسبة عدم اتقانه العلم او سوء مرباه الى نقص في عناية المدرسة حال كون علة ذلك ما نحن به مندّدون وعنه مرغبون منكّبون .

ولقد راينا من اهل بلادنا في هذه السنين المتاخرة اقبالاً بالغًا حد الافراط على تعليم بنيهم مبادي اللغات الاجنبية منتصرين عليها دون غيرها او دون ان يضطلعوا فيها ويتمكنوا منها دون ان يتمكنوا بلغة وطنهم فيدخل منهم الى المدارس مئات في كل سنة ويخرج منهم مئات واكثرهم خرس بكم لا يحسنون عملاً بطاء عن كل حركة متثاقلون عن كل عمل ياتيهم بالنفع ملازمون العطلة في عنفوان صبوتهم وابان اكتسابهم

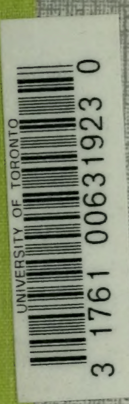
ليس لهم ما يشغلهم عن اللهو والبطالة التي هي ام الفساد ومنبع الشرور نقول ذلك لا الماماً بشرف العلم وازرآء بفضل المدارس او صدًا للشبان عن الدخول فيها والاقبال عليها فاننا ممن نشأوا في جهادها ورضعوا اخلاف المعارف في افنائها لكننا نريد في اهل بلادنا خيرًا ونسالهم الوقوف عند حد الاعتدال وتعلم لغتهم ايضاً فلطالما سمعنا من ارباب اللغات الاجنبية وكرام ذويها التنديد باهل وطننا لاقبالهم المفرط على تعلم مباديها مع اهمال لغتهم لكن ابى حب الاقتداء الاعمى الاان يجر اهل بلادنا الى التهافت على اضاعة الزمان والدرهم باطلاً. وليتهم يقفون عند هذا الحد في الاقتداء المولد للحاجات فانهم قد تهافتوا ايضاً الى التخلق باخلاق الاجانب والجري على عوائدهم واصطلاحاتهم في كل شيء زعماً منهم انهم يجرون على روح العصر او على ما يسمونه بالتمدن وفي ظنهم انهم بقدر تلبسهم بتلك العوائد يقرب شبههم بذويها فيزدادون كمالاً وثروة واعتبارًا وما دروا انهم بذلك يخلقون حاجات جديدة يتعذر عليهم رتقها في وجه شبانهم المائلين الى الامور الحديثة والاصطلاحات الجديدة خصوصاً وقد تفنهوا في معرفة اسمائها بتعلمهم اللغات الاجنبية بحيث اصبحوا لغزارة مادتهم وكثرة بضاعتهم قادرين على ان يمزجوا كثيرًا من الفاظ هذه اللغات بالفاظ من لغتهم العربية تلك الخائنة الكبرى التي جناها كثيرٌ منهم في المدارس . فعلى محبي الاقتداء ان يقرنوه بالانتقاد ولا يقبلوا على العوائد والاصطلاحات الاجنبية بعمومها على غير هدًى فان اكثرها مضر باحوالنا المعاشية لاقتضائه مزيد كلفة لا يسعنا بوجه العموم النهوض بها بل فليقتصروا على اخذ المفيد منها واطراح الغير المفيد شان الحكيم البصير فان اصطلاحاتنا هي بعمومها اقرب الى سلامة الفطرة وصحة الاداب فلا يحسن بنا الخروج عنها الّا الى ما كان اصلح وافضل بحكم ذوي البصائر واهل النقد . والله الموفق الى الصواب

بقلم احد اعضاء الدائرة
العلمية المارونية









B
28
A7N8
1886